جلالة الملك العظيم

فاروق الاول المحبوب

ليس بين الأمم الغربية العريقة فى المجد ، أمة لها مثل حظ مصر . قد وهبها الله ملكا كالفاروق فى عظمته ، وعلو همته ، وسمو نفسه ، وغيرته الوطنية . ثم جمله فوق ذلك كله ، بأرفع ما فى الملوك من جميل المناقب ، ونبيل الصفات ، وبأسمى ما أقترن بعهودهم فى الأمم ، من معانى الديمقرطية الحقة !

وان مصر الخالدة ، التى ينتظم عقد تاريخها المجيد ، عشرات القرون ، من عهود الفراعنة الأماجد والأغارقة والرومان والعرب ، لتعتبر هذا العهد السعيد ، الذى يتقلد فيه عرشها مولانا الفاروق المحبوب . أزهر عهودها فى التاريخ الانسانى ، لأنه أعز ملك من ملوكها العظام ، استولى بأخلاقه العالية على مشاعر الشعب ، وغدا بالمفاخر التى يؤديها لصالح الأمة ، مهبط الرجاء لدى كل الطبقات ، وموئل الآمال فى حياة رعاياه المخلصين !

عشرة أعوام مضت منذ تبوأ جلالته عرش آبائه وأجداده ، وهو ما أنفك منذ اليوم الأول لمباشرته سلطته الدستورية ، حريصاً على أن يأخذ بناصر كل نهضة تخدم الشعب ، وتكفل له حقوقه ، وتضمن له العيشة الرغيدة ، وتدفعه إلى العلا والأرتقاء !

فمنذ تقلد جلالة الملك فاروق المعظم عرش البلاد ، وطرق المجد الوسيع ، قد أنفتحت أمامها منذ البداية ، ومن يتأمل الشواهد العديدة التى رادفت عصره السعيد ، يجدها كلها تسجل للبلاد ، من دواعى التفاؤل والبشرى ما ينم على المستقبل الباهر الذى ينتظرها بفضل أعماله الحكيمة ، وسياسته الرشيدة ، بما يتكافىء مع ماضيها التليد وحاضرها المجيد !

إذ ليس بين شعوب الأرض أمة ، تعلقت بملكها العبقرى ، الذى جمع إلى حكمة الرجولة ، حصافة الشباب الموهوب ، كما تعلقت مصر بالفاروق المحبوب ـ لانها أدركت بأحساسها ، أنه هو العاهل العظيم الذى أصطفاه لها المولى عز وجل ، ليعقد بيده الكريمة عز مجدها تحت لوائه المرفوع !

ولا عجب اذن ، أن تتيه مصر زهواً وفخاراً ، بمليكها المعظم الذى وجدت فيه كل طبقاتها خير عماد لها ، ترنو اليه بأبصارها كلما أعوزها شأن من شؤون الحياة ، فتجد فى أعماله التى يؤديها لها ، فى كل مناسبة ، معجزة من المعجزات !

فهو الملك الوطنى الأول ، الذى ما برح يعمل على تغذية الروح الوطنية الصادقة فى النفوس ، ويدعو شعبه إلى التكاتف والتضافر للجهاد فى سبيل أعلاء شأن الوطن ، والسعى لاستكمال استقلاله .

وهو الدستورى الأول ، الذى حرص منذ البداية ، على تثبيت قواعد الحياة النيابية ، فكفل المساواة ، والعدالة لأبناء الأمة ، ونشر الطمأنينة ، وأمن الحريات العامة فى كل ناحية !

وبهذين العاملين ، استطاعت مصر أن تقف فى مصاف الأمم العظمى ، فى محيط الديمقراطيات العالمية ، وتفاخر سواها بما بلغته فى هذا المجال ، من مظاهر الحضارة والعمران !

ولقد شب الفاروق المعظم ، مجبولا على حب مصر ، مشغوفاً بأعلاء شأنها ، واسعاد بنيها . . . وإلا فمن سمع من قبل أن ملكا هو فخر الملوك ، وزينة الدنيا ، يحتوى صدره النبيل ، نفسية شعبية ، تفيض بالرحمة والحنان ، كنفس الملك فاروق ، فيبيت مهتما بأمور الرعية فى أمته ، وينطق بحكمته المأثورة عندما فاجأ مجلس الوزراء ، فى أثناء انعقاده منذ زمن قليل قائلا :

ـ «لقد جئت لأطالب بحق الفقير والمحروم» ؟ ،

وإن هذا النطق السامى ، ليصور للناس شعور الملك ، وتفاعله مع شعور الشعب ، ورغبته فى مشاركتهم متاعب حياتهم . . . وهى كلمة خالدة ، لم يسجلها التاريخ ، أو يروى لنا نظيرها ، فيما روى من مناقب الملوك ، وأقوالهم ، وأعمالهم . . . ولا غرو فقد طبع جلالته على أن يقف جهوده على سعادة شعبه . وأن يجعل أمانيه رهناً بإعزازه ، داعياً إلى بذل

الجهود فى حقل الاصلاح الاجتماعى ، حتى ينال كل فرد فى البلاد ، نصيبه من الحياة الرغدة ، ويجد الطريق ممهداً للسير فى الطريق المستقيم !

ولا ريب أن أعمال الفاروق المحبوب ، وحياته الغالية وجهوده الكريمة ، فى كل ناحية من حياة مصر ، تؤلف فى مجموعها قصيدة عامرة الأبيات ، عذبة المقاطيع ، حلوة النغمات ، فيها سحر علوى تهتز له الأرواح ، وتتناجى به القلوب . ومن أية ناحية نظرت اليها ، تجدها حافلة بالمحامد والفخر ، من جيل الى جيل !

ولقد أصبح من الحقائق الواضحة ، أن أعمال جلالته الجليلة ، قد برزت منذ العام الأول لحكمه المجيد ، فى كل ناحية فى الدولة . . وهذه يده المبسوطة الخيرات ، ما أنفكت تفيض فى سخاء وجود ، على أبناء الشعب بالحسنات والبركات . . . فالفاروق هو الملك الشفوق ، الذى يواسى شعبه ، ويكافح للترفيه عن البائسين منه ، أروع كفاح ، ويحمل عنهم فى شجاعة ، ورضى وإيمان ، شتى المتاعب والهموم !

ولم ينس أحد فى العالم ، كيف غادر جلالته منذ ثلاثة أعوام عاصمة ملكه ، فى يوم عيده السعيد ، وعلى جبينه المشرق سحابة من الحزن والاهتمام ، وسافر لتفقد المرضى فى قنا واسوان ، يوم اجتاحهم الداء الوبيل ، وعدت عليهم عاديات الوباء ، وكيف خففت زيارته الكريمة لهم ، ما نزل بهم ، وكيف مسح بيد الرفق والعطف أحزانهم ، وعمل على أسعافهم برعايته ، وكلها حنان فى حنان !

ولعل مقاييس التقدير للولاء الفياض الذى يدخره شعب مصر لمليكه المحبوب ، قد جعلت الشعب بدوره يتفنن فى الأعراب عن عواطفه نحو من يعمل لصالحه ، ويسارع لنجدته فى أشق الظروف ، لشعوره بان الملك يعرف حاجاته الرئيسية ، ويستجيب اليها ، ويحققها — ذلك لأن جلالته لم يغفل قط عن مطالب كل طبقات الأمة ، لاعتقاده بان سدته العلية هى ساحة الآمان ، ومحط الرحال ، الى حد انه يناجى الشعب بانه « خادمهم الأمين » وانه يود من صميم قلبه — لو استطاع — أن يصافح افرادهم اجمعين ، لأنه على الدوام معهم بالروح والوجدان ، فى كل آن وحين ! !

ولقد أصبح اسم الفاروق العذب يشعل عند ذكره عواطف المصريين ، يلهجون به ، ويهتفون بحياته ، فى صدق واخلاص متين . فهو الملك الصالح صاحب اليد البيضاء فى تعمير بيوت الله ، وهو الملك الرحيم الذى يأخذ بناصر البر ومؤسسات الأحسان . وهو الملك الساهر على شؤون رعاياه ، الذى يتفقد المرضى منهم فى بيوتهم ، ويشن الحملات الموفقة على الاوبئة المجتاحة والعلل الفتاكة ، ويعمل ما وسعه الجهد على تحقيق كل ما من شأنه توفير اسباب الصحة والعافية لأبناء الشعب ، ويدعو الى الاكثار من المستشفيات ودور العلاج والوحدات الصحية !

وحين نلتفت الى النواحى الحيوية فى مجتمعنا المصرى، وفى أنحاء وادى النيل بشطريه نجد آثار الفاروق المعظم واضحة ، لا تحتاج الى بيان ... فان غيرته على العلم ، وحبه لنشره ، تتجلى فى محاربته للجهل ، ودعوته الى محاربة الأمية فى الريف والمدن ، وفى تشجيعه للبعوث الثقافية ، وفى احتفائه بطلابنا المتفوقين ، وفى ما يشمل به من عطف وتشجيع جمعيات البحث ، فى مختلف فروع المعرفة والفنون !

ولقد جعل الله بفضله وتوفيقه كل خطوه يخطوها الفاروق الحكيم ، فى حقل الاصلاح الأجتماعى ، مقرونة بالنجاح والسداد ... وأن منهاجه الرفيع فى هذا السبيل المنتج المثمر ، لدستور كريم ، يجد الناس فيه مرآة لآمالهم ، وصدى لمطالبهم ، ويرون فى معانيه ومبادئه ، صدى ما يحسون ، وما يشعرون ، فيهتدون بضوئها فى الظلمات ، كلما بعد بهم العهد ، أو اتصل الزمن — ولا شك أن هذا المنهاج قد التقت فيه حكمة الفاروق بنبوغ فكره ، لأن هدفه المصلحة العامة : التى تطلب لمصر العزة والسيادة ، وتنشد للشعب الأمن والسعادة ، حتى يرتع الجميع فى ظل عرشه المفدى بالمساواة والعدالة الأجتماعية !

* * *

ولا تسل عما يحبو به جلالته الفلاحين ، وأهل الزراعة ، والعمال ، ورجال الصناعات من عونه وتشجيعه ، وعمله فى سبيل رفع مستوى المعيشة لهم ، بقلب عامر بالايمان ، وبقوة لا تكل من العمل ، ولا تمل ، حتى غدا جلالته بحق « العامل الأول » و « نصير الفلاح » ومعقد الرجاء ، وحبيب القلوب الذى لا يتوانى لحظة عن إداء واجبه نحو وطنه وشعبه على اكمل وجه ، ودون أى تفريط فى حجم خردلة !

وهكذا قل فى كل المرافق العمرانية فى البلاد ، إذ اختصها جلالته برعايته السامية ، الى حد شعر معه الجميع بجهده الرائع فى أستكمال مجدها ، وصدق البأس فى الدفاع عنها ، وشدة الأيمان فى ابلاغها الذروة والكمال تعميما لخير العباد !

* * *

أما سياسة الفاروق الرشيدة ، فتتجلى فى دأبه المتواصل للذود عن حقوق مصر ، وجهاده الدائم لتبوئها المكانة الجديرة بها فى عقد الأمم العظمى ، فان شعار جلالته ، هى أن يعمل لأن تكون مصر ، كعبة الشرق العربى ، ولهذا لم يدخر جلالته وسعاً ، فى دعوة أبنائها للوحدة ، وضم الصفوف ، وطرح الانقسامات والعمل لمجدها ، كما دعا امم العرب إلى الإتحاد ، وتكوين جامعتهم .

ولا شك أن مصر بمعالمها الجغرافية ، إطار سياسى للوطن العالمى ، الذى ظل مدى تعاقب الأزمان كافلا لجميع البشر من أرجاء الدنيا حسن الضيافة وكرم الوفادة ، مع إحترام معتقداتهم المختلفة .

وهذه المبادىء السامية ، مبادىء التسامح ، والتعاطف الانسانى خليقة بأن تجعل كل فريق فى مصر ، ينصهر فى روح الوطن القومى ، روح مصر الخالدة التى يتقد قلب الفاروق غيرة على النهوض بها ، والسير قدماً فى مضمار العلا والفلاح . !

ومما يذكر لجلالته بالحمد ، أنه لم يفته أن يشمل بعطفه السابغ ، كل أمة من أمم العرب حتى أعتبرته كلها مليك العرب أجمعين . !

وهذه أفضاله المذكورة ، ومواقفه المشهورة فى أبان محنة لبنان التى ضمد جراحها بمؤاساته الكريمة ، ساعة أمتدت يد الظلم والإستبداد فعبثت باستقلالها . وهذه سوريا المجاهدة تذكر لجلالته عطفه عليها ، ومؤازرته لحقها . وهذه فلسطين الشهيدة يلهج لسانها بما أفاضه عليها من بر ، ورعاية حين أحتضن زعيمها الأول ، المجاهد الحاج ، أمين الحسينى ، مفتيها الأكبر حين نزل فى حماه وكيف نصرها فى بلواها !

وآية ذلك إن جلالته لا يترك فرصة من غير انتهازها ، لتحقيق التعاون والتضامن بين ملوك العرب وشعوبهم ، للتكاتف فى حل مشاكلهم لأيمان جلالته ، بأن فى الاتحاد قوة ، تجعل هذه الأمم المجيدة ، تستعصى على الغاصبين ، وتستخلص حقوقها من براثن المستعمرين !

إن كل هذه الآيات البينات ، لمفاخر مشرقة فى ذلك السجل الخالد من سلسلة أعمال الفاروق العظيم . . . وأنها لسطور مجد تزهى على الزمن ، وتطاول الأجيال ، بل هى حلقة ذهبية إتصلت بها أمجاد مصر ، وأصبحت مظهراً لنبض الحياة فيها ، ورمزاً للقوة المدخرة فيها ، لتزداد بها رفعة وإعتزازاً ، فى عهد الفاروق السعيد الذى تسوده الحريات ، وتجلوه العزة القومية . ! !

* * *

فحيا الله عصرك الزاهر يامولاى ، وأيد عرشك المفدى ، ووفقك فى ملكك . وجعل عز الشرق على يدك ، وآية النصر للعروبة بجهدك . !

إن عصرك يامولاى ، هو العصر الذهبى فى تاريخ مصر . . . يرتل فيه الناس لإسمك المحبوب لحن الخلود ، ويترنمون فيه بأفضالك على شعبك ، ويبتهلون لله أن يديمك ، ويطيل عمرك وينصرك على الدوام . !

فدم للشعب على مر الزمن ياملك القلوب . ! !

وعش يافاروق ، يارجاء النيل السعيد ، وتاج الملوك . ! !

عهد المغفور له الملك فؤاد الاول

يعتبر عهد المغفور له الملك العظيم فؤاد الأول ، بما حفل به من الاعمال الجليلة ، وما تم فيه من المآثر عهد النهضة الحديثة فى مصر المتطلعة إلى الرفعة والكمال — ويكفى فخراً أن جلالته — طيب الله ثراه — وقبل أن يتولى مقاليد السلطان ، كان ملهماً بما تدخره له العناية الآلهية من المستقبل المجيد لبلاده ، حين نطق وهو أمير ، بهذه الآية الجديرة بأن تذهب مذهب الحكم والامثال حيث قال :

« إن أمجادنا القديمة ، وتقاليدنا المقدسة ، تعيننا على المضى بوطننا المحبوب ، المجدد الشباب إلى الكمال الانسانى ، الذى ما انفك أمنية القرون ، وسط تنازع الشعوب ورائد الفلاسفة فى كل عصر ، من عهد أرسطو الى تولستوى فهو المنارة المتألقة فى أفق المطمح الأسمى للعوالم » !!

المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول

فلما ألقيت إلى يد جلالته مقاليد السلطان الأعلى فى البلاد ، وجه كل جهوده الفائقة إلى إبلاغ وطنه المجدد الشباب تلك المنزلة التى ظل يتمناها ، ويحلم بها ، وترنم لسانه بآياتها ، لتصل إلى الكمال المنشود الذى تاقت إليه نفسه ، وأدركتها فى عهده السعيد ، وعهد شبله المجيد !

كان جلالته — رحمه الله — محباً بفطرته للعلم ، ونصيراً بطبعه لكل نهضة مباركة فى البلاد . . . ومن ينظر بامعان فى مراحل نشأة جلالته الاولى ، يجد أثر جلالته فى بث هذه الروح العميمة الخيرات فى بلاده ، واضحاً جلياً . إذ رصد قواه لخدمة النهضة العلمية والادبية فى مصر ، بعد اعتزاله كل المناصب التى شغلها قبل توليه عرش البلاد ، فأبدى فى هذه الناحية همة عالية ، وعلماً نادراً ، وغيرة عظيمة على تقدم البلاد وترقيتها فى النهوض بشبابها الناشىء من الناحيتين الثقيفية والتهذيبية !

فضله فى إنشاء الجامعة

فى سنة ١٩٠٦ ، قامت فى مصر حركة ميمونة البركات هدفها الرغبة فى الاستزادة من التعليم ، ونشر نوره فى أرجاء البلاد ، حتى يعم جميع طبقات الشعب . فضلا عن احتدام التعطش إلى التعليم العالى ، والميل إلى خلق الروح الجامعية ، التى تربى فى المتنورين من شبابنا حرية التفكير ، وسداد الرأى . فحمل لواء هذه الحركة المثمرة سمو الأمير « أحمد فؤاد » فكان العمود الفقرى فى إنشاء الجامعة المصرية . . وكان الباعث لهذه النهضة ، ومحييها ومغذيها ، إذ شرف الجامعة ، برآسته الكريمة ، ولعل الكلمة الخالدة ، التى تنم على نزوعه بالغريزة إلى دوام

الاشتغال بمصلحة الوطن . تلك التي قالها في ذلك الحين : « غير مهم أن يكون المرء أميراً . إنما المهم أن يكون المرء نافعاً » !

ولقد سارت الجامعة بخطى واسعة إلى التقدم والنجاح بفضل رعايته ، إذ سهر على تقدمها ، وشجع كل الحركات التي ترمي إلى إيجاد جيل جديد في البلاد يعاون على رقيها العمراني في ميدان الحضارة .

ولم تقف جهود هذه العبقرية عند تلك الغاية . فان لها ثماراً أخرى كثيرة ، دانت قطوفها للواردين ، وآلاف المستفيدين . إذ في سنة ١٩١٧ ، التفت سموه إلى « الجمعية الجغرافية » التي كان قد أسسها والده العظيم الخديوي اسماعيل في ١٨٧٥ ، لتعزيز الاستكشافات في أفريقيا وما جاورها ، فاستحدث فيها « المتحف الاتنوغرافي » ومد بحوثها من الناحية الجغرافية ، بحيث تتناول الناحيتين التاريخية واللغوية الخاصة بمصر . وبذلك استردت مكانتها بعد أن كان الضعف قد اصطلح عليها ، وزادت نتائج أعمالها على ما كان يرجوه مؤسسها العظيم .

معهد الاحياء المائية

ويعود الفضل في انشاء معهد الاحياء المائية إلى جلالته بالذات ، فقد وجد أن بلاده ممتدة الشواطىء على بحرين عظيمين ، ومع ذلك فهي قليلة الانتفاع بخيراتها ، وجل تعويلها فيما تحصل عليه من الاسماك هو مما يأتيها من النيل أو من البحيرات ، على كثرة خيرات البحرين الآخرين ، وذلك لجهل الناس بحياة الاحياء المائية ، مع أن الامم الراقية الاخرى قد استحدثت في هذا السبيل علوماً كثيرة انتفعت بها

ولذلك عمل على انشاء هذا المعهد في سنة ١٩١٧ بعد جهود جبارة ، وذلك لعدم ادراك الاكثرين لفائدته ، أما الان ففوائده يذكرها الجميع . فيذكرون معها الخدمات الجزيلة النفع التي تمت بانشائه .

جمعية الاقتصاد والتشريع

كذلك يعود إليه فضل التفكير في إنشاء جمعية « الاقتصاد والانشاء والتشريع » التي تنتظم في عقد واحد ، صفوة رجال العلم والقانون لدراسة الامور الهامة التي تتصل بالحالة الاجتماعية والاقتصادية للبلاد ، وترسم لها الخطط التي تسير على نهجها في تقدمها إلى الفلاح .

وكل هذه الاعمال التي جاءت نتائجها باهرة ، حتى أصبح لها أعظم الآثار في كل مرافق الحياة العمرانية في مصر ، قد تمت على يديه وهو أمير ، أو وهو في مستهل جلوسه على العرش .

جلالة الملك فؤاد الاول

وقد تولى الأمير « أحمد فؤاد » — في أواخر سنه ١٩١٧ ، عرش مصر خلفاً للمغفور له السلطان حسين كامل وكانت الحرب العالمية الأولى ، في نهاية معاركها ، إذ نشبت المعركة الفاصلة بين المتحاربين ، على أثر انسحاب روسيا من الميدان ، ووقف الحلفاء أمام المضايق ، لا يستطيعون اقتحامها ، وكانت الظروف في مصر من أدق ما يكون إذ الأحكام العرفية كانت مفروضة ، والرقابه على الصحف وعلى كل شيء مبسوطة . . . فكان اضطلاع

جلالته بالمسئولية الكبرى. فى مثل هذه الأحوال العسيرة. يتم على الشجاعة النفسية التى طبع عليها، وكانت شخصيته القويه، برهانها، وشفيعها، فجنبت مصر كثيرا من الويلات، إلى أن حانت آونة المطالبة باستقلال البلاد وتحريرها بفضله ورعايته.

المغفور له حسين رشدى باشا

الاستهلال الموفق

وكان أول عمل بداه جلالته، واستفتح به عهده السعيد، أن أصدر نطقه السامى إلى رئيس وزرائه فى ذلك الحين المرحوم «حسين رشدى باشا» إذدل بجلاء على رغبته الصادقة فى التعاون الوثيق بين العرش والشعب للعمل على إنهاض البـــلاد إذ قال: «نشهد الله وشعبنا، على رغبتنا الصادقة فى أن نمضى دائماً فى وقف قوانا وإخلاصنا على رفاهية وطننا وسعادة شعبنا المحبوب»!

تجنيد الكفايات لخدمة النهضات

وكان أول ما رأى بنظره الثاقب أن يحققه فى هذا السبيل، أن أصدر أمره الكريم بالاستعانة بالمخلصين الأكفاء فى وضع ما يلزم من القوانين ومشروعات الاصـــلاح الإدارى، والانعاش الزراعى والاقتصادى، والانهاض الصحى، وبذل الجهود لرفع مستوى المعيشة لطبقات الشعب الفقيرة. متوسلا بذلك إلى رقى الأمة المادى، والأدبى — وأخذ يطوف بنفسه فى الاقاليم ليطلع على الاحوال، ويزور المنشئات التى أسست لصالح الشعب، ويتفقد شئون التعليم. وينفق من ماله الخاص على المبرات العامة. ما يضمن لها النماء والازدهار!

المغفور له سعد زغلول باشا

التحرر من الحماية والاستعمار!

وعندما وضعت الحرب أوزارها، إنبثقت فى سماء البـــلاد أنوار فجر جديد، إذ نهضت مصر تطالب انجلترا بالاستقلال والحرية. وتقرير المصير. طبقاً لمبادىء «ويلسون الأربعة عشر» التى نادى بها. فى «الجليه» — كما كانوا يسمونها — ولسنا نذيع سراً، إذا ذكرنا أن أول من رأى بثاقب نظره أن فكرة المطالبة إلى استكمال حقوق مصر. تقتضى تكوين وفد يمثل البـــلاد. هو المرحوم «رشدى باشا». فأشار بذلك على المرحومين «سعد زغلول باشا» و «على شعراوى باشا» و «عبد العزيز فهمى باشا» — أطال الله حياته — فتوجه هؤلاء الأقطاب الثلاثة تنفيذا للخطة الموضوعة بينهم وبين رئيس الحكومة فى ذلك الوقت إلى «السير ونجت»

المندوب السامى البريطانى ، وطالبوه بالغاء الحماية ، واستقلال البلاد . وكان هذا المسعى هو مبدأ الحركة الوطنية فى مصر ، فى عهدها الحديث . على أنه بعد مسألة التوكيلات عن الأمة ، وسفر الوفد الذى شكل للسعى فى الخارج إلى تقرير مطالب مصر ، وقع الإنقسام ودب الخلاف بين أعضائه . وترتب على هذا انشطار الجبهة العاملة لحرية مصر إلى فريقين ، كما هو معروف . ونرى أن نتجاوزه لنذكر أن خمسة أعوام كاملة من حياة مصر تقضت فى خلافات حزبية إلى أن صدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، وهو يقضى بالغاء الحماية ، وإعطاء البلاد استقلالها ، والمناداة « بالسلطان فؤاد ، ملكاً عليها . وكان أول نطق سام صدر من جلالته حينذاك قوله : « هذه هى ثمرة المجهود الوطنى الذى ما أنفككنا نشجعه ونشد أزره ، وأنه لثمرة مباركة ، من ثمرات التعاون بين أبناء البلاد » ! !

مصر الديمقراطية وعهدها الجديد

وبذلك أصبحت مصر دولة مستقلة ذات سيادة . إذ وضع لها دستور يماثل أعظم الدساتير فى الأمم الديمقراطية. وأسست فى الخارج المفوضيات والقنصليات ، لتبادل التمثيل السياسى بينها وبين أمم العالم . وأخذت حركة الاصلاح الداخلى تحتل فى برامج كل الحكومات المكانة الرئيسية فى سلسلة أعمالها .

غيرة جلالته على وحدة الامة القومية

ومن الحوادث التى أذكرها أنه لما تشكلت اللجنة التى تولت وضع الأسس التى ينهض عليها الدستور المصرى ، — وكانت مؤلفة من أعاظم الرجال ، برياسة المرحوم حسين رشدى باشا . وكان ضمن أعضائها فريق يمثل الأقليات — أى الطوائف غير الإسلامية — فقر قرارهم فى مبدأ الأمر ، واتحدت كلمتهم ، على أن يضعوا فى صلب الدستور ، نصاً صريحاً بالمحافظة على حقوقهم ، وكنت أنذاك أحد أفراد هذا الفريق . إلا أنى وإن كنت متفقاً مع الأقليات ، فى اتخاذ مايلزم من الاحتياطات لحفظ حقوقها ، رأيت بالتأمل ، والتفكير أن ذلك ليس من مصلحة البلاد ، إذ أن التضامن القومى يتنافى معه . ولذا طلبت إلى زملائى أن يوافقوا على هذا الرأى . ولكن جلالة الملك فؤاد ، رأى بثاقب فكره البعيد ، أن ذلك النص الذى يريدونه ليس مما يتفق مع الوحدة القومية التى تنشدها البلاد ، فتفضل واستدعانى للتشرف بمقابلته ، فلما مثلت بين يديه ، قال جلالته — موجهاً إلى نطقه الكريم — لما كان بيننا من صلات قديمة ، يرجع عهدها إلى ماقبل توليه عرش البلاد .

— « هل توافق ياقليني باشا على أن تكون البلاد شيعاً ، مقسمة إلى جملة طوائف ، فتقيمون فى مصر جملة حكومات داخل الحكومة ؟ »

ثم استطرد قائلا :

— : « إننى استدعيتك لأقول لك أنى غير راض عن هذا الأمر ، ولا يمكن أن أقبله بأى وجه من الوجوه. فأعمل جهد ما فى استطاعتك لمعارضة هذه الفكرة ومناهضتها بكل الوسائل الممكنة ، حتى تهدم من أساسها ، حفظاً لوحدة الأمة القومية » !

فأجبت جلالته قائلا :

— « من ناحيتى يامولاى . فإشارتكم أمر مطاع . . . ولكن ماذا أفعل مع الآخرين ! ! ؟ »

فقال :

— « تدبر الأمر . وأنا معتقد أنك قادر على العمل وفوق رغبتى . . . على شريطة أن لا يقحم أحد اسمى ، ولا يدرى إنسان أننى الموحى إليك بذلك » !

وأخذت أفكر فى الأمر . وأتدبره . واعتمدت على الله . إذ أخذت أمهد للأمر بالنشر فى الصحف ، فأذعت عدة مقالات ممهورة بتوقيعى الصريح . ذكرت فى سياقها أن حب الوطن . والحرص على وحدة أبنائه . هى التى أوحت إلىّ بها ـ وذلك يدعو المصريين إلى التضامن . ليكونوا جميعاً على اختلاف مذاهبهم ، وتعدد أديانهم كتلة واحدة . لاتنفصم عراها . بعيدة عن الانقسام . . . وأخذت أعارض الفكرة المقترحة فى لجنة الدستور ، لما تحمل بين أطوائها من عناصر التفرقة . ودعوت إلى أن يظل أبناء مصر جميعاً خاضعين لقانون واحد ، وسلطة واحدة ، حرصاً على وحدتها القومية ! !

لجنة الدستور

اللجنة التى تألفت من عظماء مصر وتولت وضع الدستور . ويرى المؤلف واقفاً فى آخر الصف الأول (إلى اليمين) وخلفه المرحوم إبراهيم الهلباوى بك . وحسين هيكل باشا وعبد العزيز فهمى باشا وغيرهم .

فلما نشرت هذه المقالات فى الصحف ، ثارت ثائرة الآخرين واشتد حنقهم علىّ . وقاموا لما دعوت إليه وقعدوا . وأعتبروا هذه الدعوة خروجاً منى على ما أجمعوا عليه . فدبروا حملة ضدى فى الصحف العربية والأفرنجية وفى المنتديات العامة والخاصة ، وأخذوا يستفسرونى عن الدوافع التى حملتنى على مخالفتهم وإبداء ذلك علانية لعلهم يفهمون أن هناك من أوحى إلى بها . فكنت أجيبهم بأن ما رأيته هو الصواب . لأنه فى صالح البلاد ! !

وفعلا تم فى اللجنة ، ما دعوت اليه ، وأعلنت عنه ، ولكن بعد مرور فترة من الزمن أتصل بعلم من كانوا يعارضوننى ، أن جلالة الملك فؤاد ، هو الذى رغب فى تحقيق هذا الأمر ، فادركوا مدى الخير فيه ، والحكمة منه فشكرونى ، وحمدوا لى صبرى على ما نالنى من أذاهم ، وتجلدى على التجريح والتنديد الذى أصابنى منهم ، فى سبيل فكرة رشيدة ، مثل هذه الفكرة الوطنية التى كفلت وحدة الأمه ، وتكتلها ، وتضامن أبنائها الصحيح ، تحت تاجها المفدى !!

جوده المباركة فى الاصلاح الاجتماعى

ولقد توجهت عناية المغفور له الملك فؤاد العظيم ، منذ أن أعترفت الدول رسمياً باستقلال مصر ، إلى مسائل الاصلاح الاجتماعى . ولا شك أن عهده الزاهر ، يعتبر من هذه الناحية عهد التشييد والتجديد ، والانشاء والاحياء ، متناولا هذا الاصلاح بلباقة بارعة ، حتى لا تصطدم بتقاليدنا التى نحرص عليها . فعرف هذا الربان المحنك كيف يؤمن سفينة البلاد فى أثناء سيرها الشاق فى بحار العمران . بيقظته الدائمة من المخاطر ، لتصل إلى شاطىء الأمان !

تقويم الحياة المعاشية للاهلين

ويطول بنا المقام إذا حاولنا أن نحصر الاصلاحات أو نذكر المنشئات والمؤسسات التى تمت فى عهده المجيد . ولكن يكفى من مجرد الاشارة إليها ، أن تتجلى للناس ما تفيئه على البلاد من نعم وخيرات . . . لأنها فى مجموعها ، تهدف إلى تقويم الحياة الاجتماعية فى مصر ، وتحسين الاحوال المعاشية لاهلها ، لما لذلك من اتصال وثيق برقى البلاد ومدنيتها ، ومكانتها العمرانية . . . فكانت أعمال جلالته فى الداب على توفير مطالب الفلاحين والسعى لتحسين أحوال العمال ، وغيرهم من الطبقات الشعبية فى الامة والبر بها ، مضرب الامثال !

النهضة الصحية والتوسع فيها

وليس فى مصر من ينكر كيف خطت الصحة العامة فى عهد جلالته خطواتها الموفقة نحو الأصلاح ، وقد أمر بتحويل مصلحة الصحة فى ذلك العهد إلى وكالة وزارة . ثم عمل على ارسال البعوث الطبية وزيدت ميزانيتها زيادة عظيمة ، لتواجه هذه الحالة ، لتحقيق هذه الأغراض . وكل ذلك بفضل ارشاده الحكيم وتوجيهه العظيم .

إصلاح الاوقاف ودفع الشكايات منها

وعنى جلالته عناية خاصة باصلاح الأوقاف ، ولاشك أن مشكلة الأوقاف ، كانت على الدوام مبعث الشكوى والتذمر ، لما كان يجرى فيها من المظالم وتبديد حقوق الناس .

فلما وجه جلالته بعض عنايته لدرء هذه الحالة التعسة ، أدت جهوده إلى تحسينها بعض الأمر ، فتكاثرت فى عهده الايرادات التى تدرها الاوقاف الاهلية المعهود بها إلى وزارة الاوقاف ، عما كانت عليه أضعافاً مضاعفة عن ذى قبل ، وتوفر من إيرادات الاوقاف الخيرية ، المال الكافى للانفاق على المؤسسات الصحيه والعلمية ، وسواها من المرافق الانسانية !!

ومن النوادر التى أحفظها للتدليل على هذه المظالم، أنه حينما كان المرحوم إبراهيم باشا فتحى وزيراً للأوقاف، أتت إليه فى الوزارة سيدة كانت لابسة ملابس رثة ، ولا أبالغ إذا قلت أنها كانت تلبس فستانا به أكثر من عشرين رقعة ، وحافية القدمين ، وقالت للوزير : « إننى فى فقر شديد ، اضطرنى إلى الاكتساء بهذه الاسمال البالية وأن أمشى حافية القدمين ، وليس معى ما أقتات به اليوم ، مع أنه لى مبالغ جسيمة بوزارة الاوقاف حبسوها عنى وأوجدونى فى هذه الحالة ، وقد حضرت ملتجئة إليك لتصرف لى ولو عشرة جنيهات أقتات بها حتى يأتى الفرج » فطلب فى الحال العامل المختص وسأله عما اذا كان لهذة السيدة مال بوزارة الأوقاف ؟ فأجاب : نعم لها أكثر من ١٢٠٠٠ جنيه ! فقال له : وهل من تملك ١٢٠٠٠ جنيه يصح أن تكون بهذه الملابس البالية والأقدام الحافية، ولا يجد ماتقتات به يوماً ؟ فأجاب العامل عندما أردنا الصرف على الحساب استفتينا مفتى الوزارة فأفتى بعدم الجواز فاضطررنا لاتباع نصيحته كما هو الجارى فى مثل هذه المسائل ! فغضب الوزير غضباً شديداً وأمر بصرف المبلغ بأكمله حالا وناهيك بما نالها من السرور الذى كاد يقتلها من الفرح ، ثم استدعى رحمه الله المفتى وعنفه تعنيفاً شديداً وأمر أن تكون مثل هذه المسائل من اختصاص الوزير فقط ولا شأن للمفتى فيها . . !

جلالته زعيم الاصلاح !

وفى كل ناحية من نواحى الحياة العمرانية ، نجد آثار جلالة الملك فؤاد ، متجلية ، سواء فى تنظيم أحوال الرى الذى يعتبر بالنسبة للحياة الزراعية فى البلاد ، مصدر نماؤها ، أو فى العمل على التعمير ، سواء فى تحسين طرق المواصلات ، أو فى توسيع الموانى المصرية تمشيا مع زيادة التجارة مع الخارج ، أو فى الشؤون الصناعية والاقتصادية والزراعية ، والتعليمية ، بمختلف فروعها — مما يحتاج الكشف عن مفاخره فى كل ناحية منها ، الى صفحات وصفحات !

وبهذه المآثر يستحق أن يكون جلالة الملك فؤاد زعيم الفكرة الاصلاحية ، ولذلك كان جلالته يهتم جد الاهتمام بالبحوث التى تسفر عن عقد المؤتمرات التى اجتمعت فى عهده بالبلاد ، وأهمها مؤتمر الطب والجراحة ، ومؤتمر البريد ، ومؤتمر الجراد وغيرها مما ترتب عليه توسيع نطاق المباحث المفيدة ، والانتفاع بها ، فى ترقية البلاد

فضله البارز على جمعية الهلال الاحمر والاسعاف

ولجلالة الملك فؤاد ، أفضال لا تزال أنوارها مشرقة على جمعية الهلال الاحمر المصرى ، التى تأسست سنة ١٩١٢ ، بمناسبة الحرب الطرابلسية الايطالية برئاسة صاحب السمو الملكى الأمير الجليل محمد على ، ولى العهد — كما سيأتى بالتفصيل — فان جلالته ، فى عهده السعيد ، والاها بالرعاية والمؤازرة حتى خطت خطوات عظيمة ، أصبحت بفضلها تحتل المكان العالى فى الحياة المصرية ، وشمل نفعها الامم على اختلافها فى الشرق والغرب ، مما يدل على مقدار نموها وازدهارها . . .

وكان تشجيع جلالته لجمعيات الاسعاف خير معوان لشد أزر القائمين بها ، حتى جعلها من المؤسسات الضرورية التى لاغنى عنها للبلاد والعباد . فأنتشرت بفضله فروعها فى كل المديريات والمراكز ، وهى تقوم اليوم بأجل الخدمات . وأصبح لها بفضل تشجيعه أملاك كثيرة وموارد عظيمة ، تكفل لها الحياة الدائمة ، والتقدم المطرد .

وهكذا طبع الناس على حب المعاونة بوساطتها ، فصانت بخدماتها أرواح الكثيرين . وضمنت أسباب المعالجة لآلاف الجرحى من المصابين . . . ولا غرو ، فما أستحق أن يولد من عاش لنفسه فقط » !!

وكذلك عمل جلالته على إنشاء « جمعية السياحة » لأن مصر بموقعها الجغرافى العظيم ، وبآثارها الخالدة ، هى مقصد السائحين من كل بلاد المعمورة . . . ولما كانت السياحة فى الأمم المتحضرة لها مكان الصدارة فى اقتصادياتها ومصدر رئيسى من موارد الثروة القومية — فقد رأى جلالة الملك فؤاد أن ينشىء جمعية السياحة ، للدعاية لها فى الخارج ، ولتنظيم شؤونها فى الداخل . وقد كان من آثارها أن عقد مؤتمر للسياحة فى مصر ، كان خير اعلان عن مفاخرنا وآثارنا ، وجمال الطبيعة التى تتميز بها بلادنا . فضلا عما أصابته البلاد من خير عميم بما أنجزته من الأعمال التى ترمى إلى تنشيط السياحة .

تنشيطه للمرافق الاقتصادية

ولا يمكن أن تنسى مصر أفضال جلالته ، ومآثره الجمة فى الناحيتين المالية والتجارية ، إذ استطاعت مصر فى مدى عشر سنوات من حكم الملك فؤاد أن تحظى بمكانة اقتصادية عظيمة ، حفظت لها مستوى يعتبر بالنسبة للأزمات التى طالما أجتاحت الأمم الأخرى ، فى الذروة . ولا غرو فى ذلك فان عنايته بتحقيق ألوان الاصلاح فى المصالح والمرافق العامة والادارات المختلفة هى التى كفلت للبلاد هذه الغايات .

رعايته للنهضات الفنيـــة والأدبية

وبفضل شغف جلالته بالتعليم ورعايته للمتعلمين نمت الحركات العلمية والنهضات الأدبية والفنية فى انحـــاء البلاد فخطت الجامعة فى عهده السعيد ، خطوات واسعة ، حتى غدت تضارع أكبر جامعات أوربا وأمريكا الكبرى وغدت تمنح النبهاء المتقدمين إليها ، أعلى الدرجات العلمية . وذلك علاوة على النهضة الشاملة التى عمت كل دور التعليم العام ، فى مختلف مراحلها وعلى الأخص عنايته بادخال الأنظمة الحديثة على الجامعة الازهرية ، وبذلك تجدد شبابها ، وغدت منارة الفقه والعلوم الدينية ، فى العالم العربى كله ، يهتدى أهل العلم بنورها ، ويأتمون بهديها . . . وهكذا بمثل هـذه الهمة ، وبفضل تلك العبقرية خطت مصر خطوات سريعة فى ميدان التقدم والحضارة والمدنية والعرفان !!

فضله على الآثار المصرية

وأما عن فضل جـلالته على الآثار المصرية ، فحدث ولا حرج . ثم أن رعايته السـامية لمفاخرنا القديمـة فى هذه الناحية ، حملت جـلالته على أن يرعى المتحف القبطى للآثار بعطفه الكريم . فأمر — رحمة الله — بضمه إلى الحكومة ، حتى غدا يضارع فى الأهمية دار الآثار العربية والمصرية القديمة ، لاعتقاده بأنها جميعاً تكوّن المظاهر الصحيحة لعظمتنا وأمجاد تاريخنا ، ومفاخر أسلافنا القدماء .

ويجدر بى فى هذا المقام ، أن أنوه بأن هذه الايماءة السامية من جـلالته بالعناية « بالمتحف القبطى » قد جعلت له من الأهمية ، ما لم يكن يخطر على بال . إلى حد أن المشغوفين بالآثار القديمة ، كان لا يفوتهم زيارته

والاطلاع على ما به من بدائع الفن . حتى لقد كان جلالته إذا كان من يزور المتحف القبطى من الملوك ، يستصوب أن يستصحبه . ويشرف المتحف معه بزيارته . وانى لا أزال أذكر — وقد كنت عضواً فى مجلس إدارة المتحف — زيارة جلالته السامية ، مستصحباً معه جلالة الملك «فيكتور عمانوئيل» ملك ايطاليا السابق ، يوم زار مصر فى سنة ١٩٣٣ ، ونزل ضيفاً على جلالته — أقول لا أزال أذكر كيف كان جلالته يتحدث عن كل ما يحويه المتحف حديث العالم الخبير ، والباحث المدقق ، الذى يحيط بتاريخ كل قطعة أثرية فى المتحف مهما بعد بها العهد .

جلالة الملك عمانوئيل ملك إيطاليا السابق والمغفور له الملك فؤاد عند زيارتهما المتحف القبطى سنة ١٩٣٣ ويرى المؤلف (طلبتى مهنى باشا) فى شرف استقبالهما

وكان من أعظم الأعمال التى تمت فى عصره الزاهر ، إنشاء بنك التسليف الزراعى المصرى — وقد كنت أول من نادى بضرورة إنشائه أكثر من ثلاثين عاماً . فأدى وجوده لأهالى البلاد خدمات لا تحصى ، بإمدادهم بكل ما يحتاجون إليه من سماد ، وبذور ، لاسيما عند ما تغلق سائر البنوك أبوابها فى وجوه الزراع عند اشتداد الأزمات .

تلك آثارنا تدل علينا !

ويطول بنا المقام إذا أردنا أن نعدد كل الاصلاحات التى تمت فى خلال تولية جلالته عرش مصر ، ولكن جملة القول أن نذكر بإيجاز ، بأنه قد تناول مهمة الاضطلاع بهذه الاصلاحات فى لباقة ومهارة ، دون أن يحدث أى تصادم بين طبقات الشعب الاجتماعية المختلفة ، من محافظة ومجددة . . . إذ لا ملام بين ظروفها جميعاً . وكان من حين إلى حين يستدعى عظماء الأمة ، ومفكريها لاستطلاع آرائهم ، وتعرف افكارهم ، رغبة منه فى إنشاء دعامة للتعاون بين الأمة ، والحكومة .

المغفور له عدلى الخالق ثروت باشا

التحالف بين مصر وبريطانيا

ولقد كان من نتائج حصول البلاد على تصريح ٢٨ فبراير ، أن اتجهت الجهود ، لتنظيم علاقات مصر بانجلترا على أساس عقد معاهدة صداقة ، وتحالف بينهما . ولا يزال يذكر الناس مدى ما بذل فى هذه الناحية عبثاً . . . إذ كانت كل مباحثة فى هذا الشأن ، سواء أكانت على يد المرحوم سعد زغلول باشا ، أو عدلى باشا ، أو ثروت باشا ،

أو محمد محمود باشا ـ رحمهم الله أجمعين ـ سرعان ما تنتهى بالتوقف والقطع . وذلك بسبب اختلاف الأحزاب المصرية ، وعدم اتحادها ، واشتداد التنازع وتباين الآراء بينها ـ إلى أن وقف جلالة الملك فؤاد الأول ـ طيب الله ثراه ـ قبيل أن تستأثر به رحمة الله ، وقفته التاريخية الخالدة ، التى أدت إلى اتحاد الأحزاب كلها ، وتكوين الجبهة الوطنيـــة التى تم على يديها عقد المعاهدة المصرية الأنجليزية فى سنة ١٩٣٦ .

المغفور له عدلى يكن باشا

مصر فى عهدها الجديد

وهكذا امتـاز عهد الملك فؤاد بتقرير الأنظمة الدستورية ، وتدعيم الحكم النيابى ، الذى جعل المصريين متساويين أمام القانون ، وكفل لهم حرياتهم الشخصية ، فضلا عما تم فى آخريات أيامه من عقد المعاهدة التى طالمـا بذلت الجهود بغير طائل لأبرامها ، تنظيما لعلاقات مصر بحليفتها انجلترا ، واستكمالا للمرحلة الثانية من مراحل استقلال مصر فى عهدها الجديد !

فضله فى تعيين البطريرك الأسبق

ومن مواقف جلالته التى لا أنساها ، فضله الملحوظ فى تعيينه ، المتنيح ، الأنبا يوأنس بطريركا للأقباط . إذ حدث فى ذلك الوقت أن توفى مطران الحبشة السابق الأنبا متاؤوس ولحقه إلى الدار الباقية قداسة البطريرك الأنبا كيرلس . . فلما رأى جلالته بفطنته السديدة ، أن شقة الخلاف قد أخذت تتسع فيمن يعين بطريركا ، وخشى أن تنتهز بعض الدول الفرصة ، وخلو كرسى الحبشة من مطرانها القبطى المصرى ، فتعمل على احلال مطران غيره من أبنائها مكانه . ولما كانت مصر مرتبطة بالحبشة بعلاقات قديمة سياسية ودينية . وكان اختيار مطران لها لا يتم إلا إذا ، رسمه ، بطريرك الأقباط . فقد استدعانى جلالته ، وشرح الأمر قائلا :

المتنيح الأنبا متاؤوس

ـ : «إنى أرى أن تعجلوا فى اختيار بطريرك ليقسنى رسم مطران الحبشة بأسرع ما يمكن من الزمن ، حتى يقفل باب الدسائس نهائياً ، لأن المطران القبطى فضلا عن كونه تابعاً للكنيسة القبطية التى هى جزء من شعبى ـ فانه فى آن واحد يعد سفيراً مصرياً فى المسائل التى بيننا وبين الحبشة . فلهذا أرجو أن تسعى فى تنصيب بطريرك حالا لأجل أن يرسم مطراناً للحبشة ، ونقفل هذا الباب نهـائياً . ولاسيما أن هذا الأمر يهمنى خاصة من جميع الوجوه !

فأجبت جلالته بأنه توجد خلافات كثيرة بين الأقباط عمن يرشحونه بطريركا ، والأمر به من الصعوبات غير قليل ، لأن التقاليد المتبعة أن يختار البطريرك من بين رهبان الأديرة ، دون المطارنة .

المتنيح الأنبا يؤانس بطريرك الأقباط الأسبق

فأجابنى جلالته : على كل حال أرى أن الأنبا يوأنس . قائمقام البطريرك . جدير بهذا المركز ، فهو رجل عظيم ، واسع المعرفة . . وهذه ميزة قد لاتتوافر لأحد من الرهبان - إذ أنهم منقطعون عن العالم . وليس لهم كبير دراية بالأحوال المدنية ولا تجارب ، تكفل لهم النهوض بأعباء هذا المنصب الرفيع .

فقلت : يامولاى إن التقاليد تقضى باختياره من الرهبان دون المطارنه !

فقال جلالته : دعك من الماضى وتقاليده ، وأعمل كل جهدك فى تذليل الصعوبات كلها ، لكى يتم اختياره لهذا المنصب . وأنا أساعدكم على تحقيق ذلك .

(المؤلف) قلينى فهمى باشا

فقابلت عطف جلالته السامى بالشكر والدعاء . . .

ولما بدأت المساعى بين فريق المختلفين وبسطت لهم الأسباب التى تدعوهم إلى التفاهم ونبذ الاختلافات . ولا سيما أن هناك رغبة سامية بذلك . تم لنا تحقيق هذه الأمنية الكريمة باختيار الأنبا يوأنس بطريركا . وبعد انتهاء المراسيم الدينية أوكلنا إليه اختيار مطران الحبشة . فاختار المطران الحالى .

وقد تألف وفد كبير على رأسه غبطة البطريرك لشكر جلالته على حكمته السامية . وتفكيره العظيم وفضله العميم فى وضع حد للشقاق والتنازع . وكنت أنا خطيب هذا الوفد . . .

الخـــلاصة

وهكذا كانت حياة جلالة المغفور له الملك فؤاد الأول — أسكنه الله فسيح جناته — عامرة بجلائل الأعمال إذ عاش لأمته أكثر مما عاش لنفسه ! وفى كل ناحية من تاريخه العظيم تتجلى سمو الفكرة ، وعبقرية العقل ، ودقة الشعور ، ويتدفق الخير ، والبركة من كل ناحية من حياته السامية ، وجهاده المشكور الذى سوف يبقى إلى الأبد يبعث فى أبناء مصر روح العزم لرفع شأنها ، واحياء أمجادها الوطنية ، ومفاخرها القومية ! !

Open Kanoz.com

علاقة مصر بالحبشـــــة

ومشكلة دير السلطان

نهضت علاقة مصر بالحبشة . على أساس الروابط الوثيقة التى كانت وما زالت تربط الكنيستين فى مصر والحبشة ، برئاسة دينية واحدة : هى رئاسة البطريرك القبطى الأرثوذكسى . فهو وحده الذى يعين من قبله الأساقفة والمطارنة للمملكة الحبشية . والأحباش يخلصون له ، ويحترمونه غاية الاحترام ، الذى يبلغ مراتب العبادة ويفخرون بالترنم باسمه . يرددونه فى صلواتهم . ويتبركون به فى دعواتهم . . . ولا يمكن أن يتوج ملك من ملوكهم إلا بيده الكريمة أو من ينيبه عنه من الآباء الروحيين .

خـــلاف قديم على دير السلطان

ومع كل هذه الأواصر المتينة . فقد نشأ عن ذلك خلاف قديم ، يرجع عهده إلى سنوات بعيدة . خاصاً بدير السلطان . المعروف فى القدس . والمملوك للأقباط . فان الأحباش يدعون أنه ملك لهم . وأن ليس للأقباط حق فيه . . . وظل هـذا الخلاف ناشباً . حاداً . حتى أن المغفور له الامبراطور منليك . كان قد أرسل إلى كتاباً ، كما أرسل كتاباً آخر إلى المرحوم بطرس غالى باشا ، يدعو فيهما للتوسط فى حل هذه المشكلة ...

المسـاعى لفض النزاع

وأخذنا نمهد لفض النزاع القائم بين الكنيستين ولكن الوسائل التى اتخذت لم تفض إلى التوفيق المنشـود إذ ظلت المنافسة قائمة على أشدها بين الأحبـاش الموجودين بالقدس . وبين الأقباط الموجودين هناك . على أننى أخذت أجرى تحقيقات لمعرفة أحقية كل فريق من الفريقين بملكية الدير . فاستبان لى بمستندات دقيقة . لا تقبل نقضاً . أن الدير هو ملك للأقباط حقاً : ولكن هذا لم يقنع الأحباش . ولم يفض الأشكال القائم أو ينهى النزاع المحتدم بينهما . .

جلالة الامبراطور هيلاسلاسى

وأخيراً عند مازار الرأس تفرى ـ الامبراطور هيلاسلاسى فيما بعد ـ مصر ، فى طريقه لزيارة أوربا ـ وكان وقتها ولياً للعهد عقدنا اجتماعاً عظيما حضره سموه . وطائفة من كبراء الأقباط . وتناقشنا فى هـــذا الامر . ولكن الاجتماع لم يسفر عن نتيجة مرضية . . .

مقابلتى لولى العهد فى باريس

فلما وصل سموه لباريس ، كنت قد سبقته إليها فأستدعانى لمقابلته وأكرم وفادتى حين تشرفت بمقابلته غاية الاكرام . وتحادث إلى فى هذه المسألة شاكياً مما تنطوى عليه من ألوان الصعوبات . فأبديت لسموه استعدادى للعودة إلى مصر خصيصاً فى وقت عودته إليها فى طريقه إلى بلاده .

obeikandi.com

ويجب أن نشير إلى أن رحلته إلى أوربا أفادته إفادة عظيمة فى اقتباس المدنية والحضارة الأوربية لادخالها فى الحبشة كما يجب أن نشير إلى أن فخرى باشا وزير مصر المفوض فى فرنسا أقام لسموه حفلة فاخرة كنت أحد حضورها تجلت فيها مظاهر المودة وروح المحبة التى تربط مصر بالحبشة وتنم على قوة العلاقات وتوثقها بينهما . .

كيف حلت المشكلة ؟

وعاد سموه إلى مصر ورجعت أنا من سياحتى . فلما وصلت إلى الاسكندرية تلقيت برقية تتضمن انقطاع المفاوضات بين الأقباط وسمو ولى العهد ، لتعذر الوصول إلى حل . كما تلقيت برقيات أخرى يرجونى أصحابها . بسرعة قدومى للقاهرة . لعل مسعاى يقترن بالنجاح . فبعثت ببرقية إلى سموه . وكان قد أزمع السفر لبلاده . أسأله فيها عما إذا كان حضورى مجديا . فتلقيت الرد بالايجاب . وشخصت وفى الحال إلى العاصمة . وتشرفت بمقابلته . فرأيته غضبان آسفا . فتألمت لهذا الأمر . ونظرت فى الخلاف نظرة بعيدة . . وسعيت لدى أخوانى بمختلف المساعى لاقناعهم باسترضاء الحبشة شقيقة مصر لأن فى ذلك مصلحة البلاد . فأقرونى على هذا الرأى . وعرضت هذا الحل : وهو بما أن دير السلطان يشمل كنيستين صغيرتين وفضاء فى حيز مشتمل على أربعين غرفة فيصير تنفيذ الآتى : —

أولا : أن يعترف الأحباش بأن الدير هو ملك للأقباط بموجب فرامانات سلطانية . فلا يترتب على سكناهم فيه أى حق للتمليك !

ثانياً : تقسيم منافع الدير إلى قسمين يشمل كل منهما كنيسة وعشرين غرفة فيكون أحدهما للأقباط والآخر للأحباش

ثالثاً : الممر الفاصل بين هذين القسمين يظل مشاعا للطرفين

وكان هذا الاقتراح موجباً لرضى الجميع . وقبله ولى العهد قبولا حسناً حتى أنه أبدى رغبته فى أن يكتب ويوقع ليأخذه معه قبل سفره ، وكدنا نتمه لولا أن بعض الأشخاص برزوا من بين الاقباط محتجين معارضين زاعمين أن هذا مناقض لمصلحة الاقباط فسافر ولى العهد بعد أن وعدته باتمام الامر وارساله إليه فيما بعد .

غبطة البطريرك يوافق على الحل

ولما كانت الكلمة الاخيرة فى مثل هذه الامور هى لغبطة السيد البطريرك — وكان وقتها غبطة المتنيح الانبا كيرلس — فقد تشرفت بمقابلته . وعرضت عليه المسألة . فوافقنى على الحل الذى توصلت إليه فيها . فضا للأشكال . ولم يسعه إلا الموافقة التامة عليه . وذلك بأن وقع على الاتفاق بتوقيعه الكريم . وأرسله لسمو ولى العهد فى الحبشة عن طريق نيافة مطران الحبشة وقتها الانبا « متاووس » رحمه الله — وكان فى ذلك حل لمشكلة طال زمن الخلاف فيها واستعصت على الحل والتفريج ...

الأمير أصفاوصن وتكريمه فى مصر

وبهذه المناسبة أذكر أنه لما توفيت الامبراطورة « منن » تولى العرش بعدها (الامبراطور هيلاسلاسى) الذى كان وليا للعهد باسم (الرأس تفرى) وبعد مضى فترة من الزمن حضر ولى عهده ونجله الاكبر إلى مصر (الامير أصفاوصن) وأمضى بين ربوعها فترة من الوقت ، فانتهزت هذه الفرصة . ودعوته إلى وليمة فاخره أقمتها بفندق « سميراميس » العظيم . وقد جمعت هذه الحفلة أعاظم المصريين من الامراء والوزراء والادباء . وأهل الرأى فى البلاد . وكان بلبل هذه الحفلة المطربة المعروفة « أم كلثوم » التى أطربت الاسماع بشدوها العذب ونغماتها المشجية ، وصوتها الكروانى الجميل ... وكانت هذه الحفلة عربونا جديداً على صدق العلاقات بين الامتين . وكان من شهودها غبطة البطريرك السابق رحمه الله

عهد المغفور له السلطان حسين كامل

نشأ المغفور له السلطان حسين كامل نشأة إدارية وحكومية كاملة من كل النواحى .. فقد تلقى العلم فى مدرسة المنيل التى أنشأها والده المغفور له الخديوى اسماعيل . ثم ادخل المدرسة التجهيزية التى أعدت للعظماء وأبناء الذوات وأخذ من علومها بقسط وافر . ثم سافر إلى باريس ، فكان فى إحدى جامعاتها زميلا لولى عهد الامبراطور «نابليون الثالث» وبقى فيها عامين ، دعى بعدهما لحضور حفلة افتتاح « قناة السويس » . . فلما أراد أن يرجع لاستئناف دراسته نشبت « الحرب السبعينية » فرؤى أن يبقى بمصر ، مزوداً بما كسبه من ألوان المعرفة ، فوق ماحصله من دراسة الأحوال العامة فى كثير من البلاد التى طاف بها ، وحل فيها فى الشرق والغرب !

المغفور له السلطان حسين كامل

ولقد كان أول عمل حكومى باشره . هو منصب حاكم الأقاليم . حيث كان يشرف بنفسه من مقر عمله بديوان المديرية فى مدينة طنطا . على أعمال الحكام فى الأقاليم . وعلى أحوال الفلاحين فيها لتعرف حاجاتهم والعمل على تحقيق مطالبهم ..

إثاره فى الأقاليم

وكانت الفترة التى أمضاها سموه فى الأقاليم بمثابة أعداد لما هو مهيء لأن يزاوله من الأعمال الكبيرة فى المستقبل وقد كانت عنايته بدراسة أحوال جماهير الشعب وتوجيههم إلى كل ما يعود منه الخير عليهم . كفيلة بأن تحمله على استخدام نفوذه العظيم فى الضرب بيد من حديد . على بعض من لا يبالون بمصالح الناس . لاسيما الفلاحين ، الذين كانوا يجدون منه رعاية كبيرة . أهلته لأن يسموه بأجماع الآراء « أبو الفلاح » !

المناصب التى تقلدها

واختير بعدئذ وزيراً (للمعارف) و(الأوقاف) — وكان سنه لم يتعد العشرين — فتولاهما معاً — وظهرت آثار اصلاحاته فيهما ، بأجلى مظهر ، حين أنشأ مدرسة (دار العلوم) وعدة مدارس للبنات . كانت الدعامة الأولى فى التعليم النسوى . كما أصلح كثيراً من الأنظمة مما كانت تشكو منه نظارة الأوقاف وعمل على أنصاف طوائف عديدة من المستحقين . وأولى عناية خاصة للمرافق الخيرية منها التى يصيب نفعها طبقات الفقراء !

من ذكرياتى الخاصة

فمن ذكرياتى عن سموه رحمه الله . فى أيام توليه لوزارة المعارف أن أقيم امتحان فى مدرسة الأقباط الكبرى وكنت من تلاميذها . وكانت حفلات الامتحان تقام فى ذاك الوقت ، وسط احتفالات عظيمة يشرفها كبار رجال الدولة والأمراء . وقناصل الدول الأجنبية — فساعدنى الحظ . وكنت ثانى الناجحين ، من بين خمسمائة تلميذ ، وقد وزعت الجوائز بيد سموه على المتفوقين ، فكان لذلك رنة فرح وسرور ... وقد كانت المكافأة التى نلتها مجموعة من الكتب الثمينة ، مهرها سموه بإمضائه الكريم !

بعض أعمـــــاله

ومن النظارات التى تولاها سمو الأمير حسين كامل الداخلية والأشغال العمومية وكان له فضل كبير فى انقاذ البلاد من الفيضان الذى كاد يهدد مصر بالويلات فى سنة ١٨٧٤ . كما أنشأ ترعة الاسماعيلية التى أوصلت المياه العذبة إلى الاسماعيلية والسويس ، وأنتقل إلى نظارة الجهادية ، فضم إليها البحرية ، ومما يذكر أنه فى ذلك العهد توسعت حدود مصر ، وخفقت أعلامها على خط الاستواء ، وهرر وبلاد الصومال !

فى نظـارة المـالية

ثم تولى نظارة المالية خلفاً لاسماعيل صديق باشا « المفتش » ، فسار فيها سيرته فى كل أعماله ، بالشدة المقرونة بالنظام ، إلى حد أن أمر مرة بسجن المرحوم (نخلة بك الباراتى) الذى كان موضع ثقة إسماعيل باشا صديق ، ولم ينقذه إلا شفاعة الأنبا ديمتريوس بطريرك الأقباط الذى كانت له حظوة عظيمة لدى سمو الخديوى إسماعيل .

هذه هى المنشآت الادارية والحكومية للأمير حسين كامل - ومنها يرى المطالع أنه قد ألم بدقائق الأعمال فى الدولة ، ولم يترك منها ناحية لم يعرفها . وقد ظل سموه كذلك ، إلى أن قضت الظروف بأن يصحب والده العظيم الخديوى إسماعيل فى سفره إلى الخارج بعد اعتزاله العرش ، وتولى الخديوى توفيق لزمام الحكم ، فلما عاد بعد إخماد الفتنة العرابية ، ألتفت إلى إدارة أملاكه الواسعة ، وكان فى كل عمل تولاه مثال الكفاءة والنشاط والابتكار ، ولكن بعيداً عن شؤون السياسة ، أو إدارة الحكومة .

رئاسته لمجلس شورى القوانين

وفى سنة ١٩٠٩ أسندت إليه رياسة مجلس شورى القوانين فأحسن إدارتهـا . وأعلى شأنها . وكان فيها وفى الجمعية العمومية . التى تألفت فى ذلك الوقت مثالا يحتذى فى النزاهة والعدل . والانصاف .

تأسيس الجمعية الزراعيـة

ولما كانت للأمير حسين الخبرة العظيمة بامور الزراعة ، والأحوال الاجتماعية للزراع ، فقد أتجهت همته إلى بث روح النشاط والتنافس بينهم فأسس الجمعية الزراعية لتمدهم بما يفتقرون إليه من الارشادات حتى أصبحت صورة لأروع معانى التعاون الزراعى المتعارف عليه فى بلاد الغرب . وقد نجحت جهوده النافعة فى هذه الناحية

إلى ان تولاها من بعده المغفور له سمو الأمير عمر طوسون . فوسع نطاقها . وعمل على النهوض بها . حتى تعددت بفضله خدماتها للبلاد . وشملت عنايتها الصناعة . وساهمت بنصيب وافر فى كثير من نواحى النشاط العلمى والاجتماعى والاقتصادى والعمرانى على وجه العموم .

المغفور له الأمير عمر طوسون

السلطان حسين على عرش مصر

ولما قضت الظروف بتنازل المغفور له الخديوى عباس عن عرش مصر . تقرر اسناد عرش البلاد إلى المغفور له الأمير حسين كامل . ونودى به سلطاناً على مصر . وكان سموه آنذاك فى مزارعه . فاستدعى للحضور إلى العاصمة . وأقيمت مهرجانات شعبية عظيمة ابتهاجاً بذلك . وكان رئيس الوزراء فى ذلك الوقت هو المغفور له (حسين رشدى باشا) .

حبه للمساواة

ومما أذكره يوم أقيمت التشريفات التى تقدمت فيها الوفود برفع شعائر الولاء . وآيات التهانى لعظمته بمناسبة تقلده العرش . أن خص الأعراب المصريين بكلمات تكشف فى معناها عن حبه للمساواة فى التجنيد بينهم وبين بقية الشعب ـ فلما أراد المغفور له حمد الباسل باشا . وكان على رأس وفد للاعراب من أهالى الفيوم ان يتكلم . قاطعه عظمته قائلا : « قل للجميع اننا مصريون قبل كل شىء . والكل متساوون . فلا معنى للتفرقة » !

أنفته وكبرياؤه

وكانت لعظمته مواقف كلها آنفة وكبرياء نفسى . تشهد بالعظمة . فقد حدث عند مارغبت الحكومة الانجليزية بعد المناداة بالملك حسين الهاشمى ملكا على الحجاز ، ان يدعى له فى مساجد مصر . انه خليفة للمسلمين . فرفض ذلك عظمته . واوقع رفضه هذا المندوب السامى البريطانى يومئذ ـ السير مكماهون ـ فى دهشة وورطة . كان من جرائها عزله من منصبه بعد أيام ...!

حادث زيارته لمدارس الاقباط

وحدث مرة أن أراد عظمته زيارة مدارس الاقباط الكبرى فى القاهرة اسوة بباقى المدارس التى زارها . فاتفق ديوان التشريفات مع المرحوم يوسف وهبه باشا الذى كان وزيراً أيامها ـ بأن لايحضر حفلة المدارس من الأقباط سواه ، فاعترضت على ذلك ، وأوضحت لرئيس التشريفات — وكان أيامها المرحوم سعيد ذو الفقار باشا بأن ذلك يحمل أحد معنيين ، إما أن عظمة السلطان غير راض عن الأقباط ، إلى حد أن لا يحضر منهم فرد ، فى خلال تشريفه لمدارسهم ، وإما أن الأقباط غير راضين عن هذه الزيارة ، وكلا الأمرين ليس صحيحاً . وطلبت أن يكون عظماء الأقباط فى شرف استقباله . لانهم أصحاب البيت . ومن واجبهم أن يكونوا أول المرحبين بقدومه السعيد ...

والظاهر أن كلامى هذا أول لدى عظمته تأويلا على غير حقيقته . إذ نقل المرحوم محمود شكرى باشـــا ، الرواية على أنى غير راض عن النظام المعمول به فى التشريفات ـ ولكن تدخل سمو الامير احمد فؤاد (المغفور له الملك فؤاد) والمغفور له حسين رشدى باشا رئيس الوزراء فى الأمر . أعاد الحقائق إلى نصابها ، فاستدعانى عظمته وهش فى وجهى . واستقبلنى استقبالا غمرنى بالرضى والسرور . وفعلا عمل بالرأى الذى أبديته ...

بره بعظماء الرجال

ولما توفى المرحوم اللورد كتشنر فى عهد عظمته . أقترحت اعترافاً بخدماته للبلاد . عمل اكتتاب لتشييد تمثال له تخليداً لذكراه . فاتخذ بعض الوشاه هـذا الاقتراح ذريعة للدس عنى لدى عظمة السلطان ، ولكنه حين اطلع على الحافز النبيل الذى دفعنى إليه ، استصوبه واكتتب من جيبه الخاص بخمسمائة جنيه مساهمة فى المشروع ... ولكن رؤى أن يفشيء بالمبلغ المكتتب به ، مدرسة للقابلات لرعاية الأمومة ولكنى عارضت هذه الفكرة لما هو معروف عن كتشنر من بعده طيلة حياته عن النساء . وطالبت بأن من الاصوب جعل المشروع الذى يخلد به ذكراه ، متفقاً مع مبادئه . بحيث يعم النفع منها كل الطبقـات ، ولكن اللورد (سيسل) — وكان أيامئذ مستشاراً للمالية . قد رد رداً غليظاً غير مهذب ، بقوله أن الرأى قد انعقد على إنشاء مدرسة (للقابلات) ... فأجبت عليه قائلا : « لو كانت هذه الأموال التى أكتتبت بها الجماهير من جيبك الخاص ، لحق لك أن تفرض العمل الذى تريده . أما وهذه الأموال . هى أموال الشعب . فهو وحده الذى يرى فيها الرأى الأول والاخير »

المرحوم اللورد كتشنر

فلما اطلع « سيسل » على هـذا الرأى قابلنى . وقدم اعتذاره . ثم أوضح لى من الاسباب . ما جعلنى أرضخ لفكرة إنشاء مدرسة للقابلات ، وهى الموجودة فى شبرا الآن ..

ذكريات مطوية من أسرار الحرب الماضية

وفى عهد عظمة السلطان حسين كامل . حدث أن وشى للحلفاء الواشون الكاشحون . بأن المغفور له الأمير عمر طوسون ـ طيب الله ثراه ـ معاد لهم . متآمر مع الوطنيين فى مراكش والجزائر وتونس ضدهم . وأنه يمد أعداءهم هؤلاء بالأموال والأسلحة ... وكنت إذ ذاك فى أوربا . وسموه هناك أيضا ـ والحرب مستعرة الأوار مشبوبة النيران ـ فلما عزمنا على المجىء إلى مصر ـ وكان سمو الأمير عمر طوسون ـ قد سبقنى لمرسيليا . وأنا وغيرى من المصريين حفنا به إليها على نية قيامنا جميعاً لمصر . ولكن بمجرد

(المؤلف) فتحى فهمى باشا

وصول سموه إلى الميناء حجزته السلطة العسكرية وأمرته بعدم الرحيل إلى مصر فلما وصلت أنا إلى مارسيليا، عدته لما بيني وبين سموه من أواصر الصداقة المتبادلة. فرد لى الزيارة بالفندق الذى كنت نازلا فيه، ولما كان سموه محاطاً بعدد من الجواسيس فقد اتخذوا من هذه الزيارة ذريعة لأن ينسبوا إلى ما نسبوه لسموه فصدرت لى أنا أيضاً أوامر أخرى من البوليس بعدم مبارحتى لمارسيليا وعدم عودتى إلى مصر. فهالنى هذا الأمر جداً من تلك المعاملة التى لم أعرف لها من سبب. فتظلمت لرئيس الجمهورية الفرنسية ولوزير خارجيتها وكان إذ ذاك المسيو ديلكاسيه. وكنت أعرفه شخصياً. كما تظلمت للورد كتشنر الذى كان وقتها وزيراً لحربية انجلترا وبلغت المرحوم حسين رشدى باشا الذى كان رئيس الحكومة المصرية وقتها وبعد زمن صدر لى إذن بالسفر إلى مصر، فسررت كثيراً لحل هذه الأزمة. ولكن سرورى لم يدم طويلا. إذ بمجرد ركوبى الباخرة عاد إلى فى منتصف الليل رئيس البوليس السرى وأمرنى بالنزول منها وأخذنى فى سيارة مسلحة وأخبرنى أنه صدرت إليه أوامر جديدة تخالف التصريح الذى أعطى لى. وقال: أى الفنادق تريد السكنى فيها؟ فقلت له. الفندق الذى يقيم فيه سمو الأمير. فقال أنصحك أن لا تفعل!! لأن فى هذا الأمر صعوبة. وهو ليس فى صالحك فقلت له، أما متهم بذات التهمة الموجهة لسموه. فلا داعى لانفرادى بنفسى بعيداً عن إنسان أحبه يسلينى ويسرى عنى فما يجرى عليه يجرى على والأمر لله!

وعلى ذلك سارت بنا السيارة مسرعة إلى الفندق الذى كان به سمو الأمير. وفى الصباح دهش سموه كثيراً لما رآنى فقصصت لسموه ما جرى. فتكدر جداً أما أنا فقد عدت فكررت الشكوى حتى أنفقت على البرقيات التى أرسلتها لهذا الغرض كل ما كان معى. وبعد مضى مدة كنا محاطين فيها بالجواسيس أينما ذهبنا صدرت أوامر جديدة بالسماح لى بالعودة إلى مصر. وعند ما وصلت إلى أرض الوطن أراد الأمير حسين (السلطان حسين فيما بعد) مقابلتى ليستعلم عن حالة البرنس عمر فترددت بل رفضت المقابلة خوفاً من أن ينالنى ضرر جديد خلاف الضرر الذى مسنى بسبب الامير — وبعد أن اطمأننت تشرفت بمقابلة عظمته فعاتبنى على التأخير فعرضت عليه السبب. وأخيراً قال لى. ماذا ترى فى حل مشكلة الامير عمر؟ فقلت أن سموه يعلق كل آماله على همتك ويعتبرك رأس العائلة. ويترك لك الأمر للعمل على نجاته من هذه الورطة. فقال لى: إنى فعلت كل ما استطيع ولكن لم تزل بعض العقبات أمامى؟ فقلت له: هل استعنت باللورد كتشنر؟ فأنا أعرف أنه ذو همة عالية. ومروءة كبرى. ولو طلبت إليه المعاونة لاجاب طلبك! فقال: هذا آخر سهم عندى. فأخشى أن استعمله الآن فيخيب أو يطيش! ولذلك فانى سأبقيه للفرصة المناسبة. وتحدثنا أخيراً فى أحوال أخرى واستأذنته وانصرفت

وظل الامير يجاهد وساعده على ذلك توليته على العرش المصرى، وحينذاك أمكنه إنقاذ سمو الامير عمر من موقفه الحرج الذى كان فيه وقدم لمصر معززاً مكرماً

وهذه حسنة من حسنات المغفور له السلطان حسين. وكان سموه بعد عودته كلما رآنى يبتسم ويقول لى: (أهلا بزميلى)!

والخلاصة . . .

وجملة ما يقال أن المرحوم السلطان حسين كان رجلا وطنياً صميما يحب البلاد وخيرها ويميل أيضاً إلى التعرف بأعيانها وكبارها وخصوصاً إلى البيوت القديمة العريقة فى المجد . وكان كريماً كرماً حاتمياً . يميل إلى إقامة المآدب والولائم وإظهار وجوده للجميع . وكان عزيز النفس كبيرها شغفاً بالأبهة والظهور مع الشمم والكبرياء . عصبى المزاج حاد الطبع . متقلب الأحوال سريع الخاطر ماضياً فى المعاملة خصوصاً عندما يعتقد أنه على حق . ومع سرعة تأثره وشدة بطشه كان رحيم القلب قريباً إلى العفو ، بعيداً عن الحقد . وكل ماهنالك أن غضبه كان يشب شبوب النار التى لا يستمر سعيرها إلا دقائق . . !

وكان إلى جانب ذلك متصفاً بكثير من خصال والده العظيم الخديوى اسماعيل يحب ارتقاء البلاد ، ونمو الثروة وتقدم الزراعة واتساع العمران : وقد اقترح عليه الانجليز يوماً أن يغير النشيد الخديوى الذى كان قد وضع فى عهد أبيه المغفور له اسماعيل . بنشيد آخر ، فأبى ذلك كل الآباء وقال إنى أود استبقاء ما فعله أبى تذكاراً أبدياً ، لأنه كان تواقاً إلى مجد البلاد .

عهد المغفور له

سمو الخديوى عباس حلمى الثانى

لاشك أن المغفور له الخديوى عباس حلمى الثانى . كان من أعظم الخديويين الذين ولوا عرش مصر وابرزهم شخصية . واكثرهم فطنة ، وأشدهم ذكاء . وكان المأثور عنه . لطف المعشر . وطلاوة الحديث ، وبلاغة البيان ، الى حد يجتذب معه القلوب ، ويستأثر بالالباب . . وكان جم النشاط ، دافق الحيوية . موفور القوى النفسية . دائم الحركة . لايدرك للجمود ، أو الركود معنى . أو يعرف الكلل من العمل . أو الملل منه سبيلا اليه . وكانت لدفراسة ، تتجلى فى توقد ذهنه ، بحيث يستطيع معها ان يستقرىء من مجرد النظر الى أى شخص ما يجول فى ذهنه من الخواطر ، ومايتمشى بصدره من الخوالج والانفعالات — وكان مغرماً بالزراعة والصناعة ، عاملا على تنمية نهضتهما بالبلاد . تواقاً الى أن يراهما فى مستوى رفيع يماثل نظيره فى الأمم الراقية . محباً للأسفار ، عاكفاً على فهم دقائق الأحوال السياسية فى البلدان التى يزورها . معنياً اكبر العناية بسياسة الاقطار الشرقية لارتباطها بالخلافة الاسلامية . التى كان طامعاً فيها ، متطلعاً اليها — أعنى أن ينقل الخلافة من السلطنة العثمانية . الى الخديوية المصرية ، ممثلا فى هذه الناحية اطماع جده الخديوى اسماعيل العظيم !!

سمو المغفور له الخديوى عباس حلمى الثانى

توليته العرش

ولقد تولى الخديوى عباس عرش مصر ، بعد وفاة والده الخديوى توفيق . وكان اباننذ يتولى مقاليد الوزارة المرحوم مصطفى فهمى باشا ، فبادر الى دعوة سموه من الخارج . حيث كان يتلقى علومه فى جامعة فينا . فحضر سموه ، واستقبل استقبال الفاتحين . بحفاوة شعبية عظيمة تبدت فيها محبة الأمه لولى أمرها . وكان شبابه الغض يجتذب اليه قلوب الأمة . اذ لم يكن قد جاوز الثامنة عشر من عمره .

الزعيم الوطنى المغفور له
مصطفى كامل باشا

ويعتبر عهد الخديوى عباس . بدء الجهاد للتحرر من قيود الاستعمار وتحطيم الأغلال التى كانت تصفد البلاد وفاتحة عهد النزوع إلى الاستقلال لاستكمال سيادة مصر . . . فبمجرد أن تبوأ الخديوى عباس عرش آبائه وأجداده . حتى أظهر وطنية صادقة ، وجنح إلى الاستئثار بالسلطان . وأشرف فعلياً على مراقبة أعمال الحكومة . فكان أول من ابتدع عقد مجلس النظار برئاسته . للالمام بالمسائل الهامة التى ينظرها — وقد كان سموه . لرغبته

فى التخلص من قيود الاحتلال . يوالى بتشجيعه النهضة العامة التى أنبثقت فى البلاد . بقيادة الحزب الوطى ، الذى كان يعمل على تقلص نفوذ المحتلين كما أن سموه آزر الحركة الفكرية التى نشأت برياسة المصلح المجدد الشيخ « محمد عبده » وترمى فى مجموعها إلى تجديد المجتمع المصرى . وفى الوقت نفسه رمى من وراء ذلك إلى أن يكون خليفة للمسلمين ، وغير ذلك من الأطماع التى تنم على علو نفسه . وتوقة إلى كل ما من شأنه أن يغدو به ولى الأمر الفعلى فى مصر . بغير أن يحد من سلطته تداخل الأجانب . أو نفوذ المستعمرين .

المغفور له الشيخ محمد عبده

ولا يعيب هذه الحركة شىء من جانب سموه ، بقدر ما يعيب بعض من كانوا يعملون فيها . للاستغلال الشخصى . وجر المغنـــانم لأنفسهم ، من غير مبالاة بمصالح الوطن !!

أهم الحوادث التى وقعت فى عهده

ولا ريب أن عهده يمتاز بطائفة من الحوادث البارزة ، التى لم يكن مندوحة من وقوعها ، نتيجة لتصادم المصالح ، وتنازع السلطة والنفوذ . بين سموه وبين أقطاب المحتلين ، الذين كانوا يتشبثون بمراكزهم فى البلاد . وأهمها : مسألة إقالة الوزارة « الفهمية » ـ ومسألة الحـــدود ـ ونفى البطريرك القبطى ـ والمؤتمر ان الاسلامى والقبطى . ونذكر كل منها فيما يلى ، بقدر ما يتسع له المقام :

إقالة وزارة مصطفى فهمى باشا

فأما مسألة إقالة الوزارة (الفهمية) فيمكن تلخيصها . فى أن هذا الوزير العظيم ـ المرحوم مصطفى فهمى باشا ـ كان على رأس الوزارة المصرية ، عنـد ما ترتع على العـرش سمو الخديوى عباس . وكان رجلا هادئاً . بطبعه ميالا إلى الحكمة : فيه رقة . وبه وداعة : أطمعت فيه بعض الجهلاء . الذين أشاعوا عنه أنه صنيعة الانجليز : حتى لقد وقر فى ذهن سموه أنه (إنكليزى) النزعة : بالدم والفطرة : وأنه يمالئهم على حساب الوطن ويساومهم فى حقوق البلاد !!

المغفور له
مصطفى فهمى باشا وبجانبه مؤلف (قليني فهمي باشا)

بعض الاسرار الخفيـــــة

وحدث أن ألم بمصطفى فهمى باشا : مرض حمله على الاعتكاف فى منزله . فانتهز بعض الوزراء هـذه الفرصة وكانوا طامعين فى كراسى الحكم : وطلبوا إقالة الوزارة (الفهمية) — لاسيما وأن المرحوم محمود شكرى باشا وكان رئيسا للديوان التركى بالقصر كان

يتعقب الأنباء عن حالته الصحية ، فيتردد عليه متظاهراً بالاستفسار عن صحته ، ظانا أن منيته قد قربت ـ لأنهم كانوا يعلمون أن هذه هى رغبة الجناب الخديوى : ـ فيكون ذلك أسهل وسيلة للتخلص منه . ولكن صحة رئيس الوزارة أخذت فى التقدم : إلى حد تماثل معه للشفاء تماما . فأوعز محمود شكرى باشا إليه : بأن يقدم استقالته حرصا على استكماله أسباب العافية : لأن صحته لم تعد تمكنه من الاضطلاع بأعباء الحكم : خصوصا وأن سمو الخديوى يرغب فى تأليف وزارة جديدة : فلما أدرك مصطفى باشا المقصد من هذه الأحاديث قال لشكرى باشا :

— : « إنى أرجو الجناب الخديوى : وأنا محب للبيت الخديوى : مفعم القلب بالولاء له : أن لا يفعل ذلك : ويراجع نفسه فى الأمر : ويتروى فيه مع اللورد كرومر ... وأنا لا أنكر أنه ملتهب الشباب : شديد الاندفاع — وأخشى أن كرومر : يعارضه فى هذه الرغبة » !

فلما أفضى شكرى باشا بهذا الحديث لسمو الخديوى كبر عليه سماعه ، ولم يخل الأمر من بعض زيادات مختلقة وحواشى مفتعلة ، لم تصدر من مصطفى فهمى باشا ، فأصدر سموه على الفور مرسوماً باقالة وزارته ، وعهد بتأليف وزارة أخرى إلى المرحوم فخرى باشا . . .

المغفور له مصطفى فهمى باشا وبجانبه (المؤلف)

وهنا ثارت ثائرة كرومر ، لأن الخديوى تخطاه ، فلم يستشره فيما عمل ، وقام وقعد ، وطالب باقالة الوزارة الجديدة بدوره ، والعمل على ارجاع الوزارة « الفهمية » . . وكانت أزمة حادة ، تحرجت معها الأمور ، إلى درجة لم تعهد من قبل ! !

ولكن بعض الوزراء ، تدخلوا فى الأمر ، ورؤى خلاصاً للحالة ، أن يستقيل فخرى باشا ، ويعهد بمنصبه إلى رياض باشا ، وانقضت المسألة عند هذا الحل ! !

على أن ذلك قد خلف فى الصدور بعض الاحقاد ، ورؤى حرصاً على نفوذ ولى الأمر فى البلاد ، أن يستقبل بعض وفود الأعيان ، وكبار الموظفين ، لتقديم التهانى لسموه على هذا الموقف الوطنى المشرف ، فحجت إلى قصر عابدين جموع حاشدة من علية القوم ، والكبراء والعظماء ، لهذا الغرض .

بين سمو الخديوى وبينى

ومما هو جدير بالذكر أنى تشرفت بالمثول بين يدى سمو الخديوى ، ضمن بعض هذه الوفود ، فاستقبلنا بوجه مشرق ، وصدر منشرح ، مما يدل على شدة اغتباطه بالعمل الذى نفذه ، والنصر الذى ناله فى سياسته الاستقلالية وعدم مبالاته بالعواقب ، وكان يستفسر أعضاء الوفود قائلا : « هل أنتم مرتاحون إلى ما عمل » ؟ فكان جوابهم « نعم ! نعم ! يا أفندينا . . . أطال الله عمركم » !

وكان بعضهم يجيب : « إن الله قد كتب خلاص البلاد على يديكم . وما رأينا من قبل مثالا لهذا الحماس أو لهذه الرغبة الصادقة فى خلاص البلاد نظيراً من أحد قبلك » !

وهكذا من الكلمات التى تناسب هذا الموقف — ولكن الحقيقة أنها كانت كلمات تشوبها عبارات النفاق والرياء ، لأن الكثيرين من قائليها كانوا بمجرد انصرافهم من الحضرة الخديوية ، يتوجهون إلى دار « المعتمد البريطانى » ليسمعوه نقيضها . . .

وتلك لعمرى بعض ما يشوب أخلاقنا الوطنية من نقائص وعيوب !! وأنى أعتقد أن هذه الصفات إنما هى ناشئة من الذل الذى ثوى فى صدورهم ، وتمشى فيها نتيجة لعهود الاستبداد القديمة ، والمظالم الجائرة التى أنصبت فوق رؤوسهم منذ أزمان طويلة ... ولعل لهم العذر ، ونحن نلوم !!

وعند ما شرفنى سموه بمصافحتى ساعة الانصراف — ولم أكن قد تكلمت ابداً — أستوقفنى لحظة ، ويده الكريمة فى يدى وسألنى قائلا : « لم لم تتكلم ؟ ولم لم تبد رأيك بصراحة ، وأنا أعلم أنك حر الرأى !... قل كلمتك ، فانى أود سماعها » !

— قلت « يا أفندينا . . . إنى طمعاً فى مكارم أخلاقكم ، أقرر بأن رأيى مخالف لرأى الجميع ، فان أذنتم لى يا مولاى تكلمت » ! فأجاب : « قل ما تشاء !! »

— قلت : « يا أفندينا ... إن ما حدث وإن يرضى أطماع شبابكم المبارك ، ونفسكم العالية التى تتوق إلى تحرير البلاد ، لا يفيد مصر ، ولا شخص سموكم ، أعزكم الله ، بشىء ... بل هو يترك فى النفوس آثاراً محوها ليس بالأمر الهين وسوف يؤخر بعض الاصلاحات الداخلية التى ترقبها البلاد — واعتقادى أن هذا العمل ، على ما فيه من مظاهر الوطنية ، لا يخرج الإنجليز من مصر ، ولا يزحزح قيد شعرة من الاحتلال الجاثم على صدرها ... وأعتقد أن هذا يعتبر فى رأى الانجليز ، عمل عدائى يتحدى سلطانهم ، ولهذا أرى أن الجو كلما يصفو بين سموكم وبينهم يكون ذلك أعم خيراً للبلاد وأكثر نفعاً للعباد ، وبذلك يكون لسموكم الأمر الاعلى ، إذ أن تعليماتكم السنية تكون فى حالة التفاهم والصفاء ، هى وحدها التى يطيعها النظار ، أما فى حالة الخلاف ، وتباين وجهات النظر فسوف تتعدد مصادر النفوذ لدى النظار بينكم تارة وبين المعتمد البريطانى تارة أخرى » !!

المغفور له
سمو الخديوى عباس حلمى الثانى يتحدث إلى المؤلف (قلينى فهمى باشا)

فأطرق سموه مفكراً قليلا ثم قال على الفور : « نعم ، هذا رأى سديد ، يصلح على الاحـــوال الحاضرة ، ولكنى أراه ثقيلا على نفسى » !

فقلت لسموه : « إن كان أفندينا يرى الأمر كذلك ، فهناك أمر آخر يمكن به التخلص من دسائس النظار ، وما ينجم من تنافسهم على كراسى الحكم من الشحناء ، والتباغض ، وجر الأهوال على البلاد ، وذلك بجعل مناصبهم مناصب شرف ، لا يدفع عنها المرتبات المغرية ، بل يقرر لها مبلغ رمزى ، (كمصاريف انتقال) قدرها ٤٠ جنيها فى الشهر الواحد ، كما هو المعمول به فى سويسرا ، والسويد ، وبعض ممالك أوروبا الديمقراطية .. لأن المرتب الضخم يغرى النظار بالتشبث بمناصب الحكم ، ولو باعوا فى سبيلها ضمائرهم ، ومصالح بلادهم ، ومن فيها ، وعلى رأسها

سيدها ، ! وهنا تطلع إلى سموه وقال والبشر يغمر أساريره : « إن هذا الرأى يعجبنى . ولكن تحقيقه عسير ، لأن هذه المرتبات الضخمة كما تعلم ، إنما جعلت للنظار ، كثمن اشتراهم به الاحتلال الانجليزى . ليكونوا خاضعين له ، منفذين لرغباته » !

وانتهى هذا الحديث على مسمع من الكثيرين ، واستأذنا فى الانصراف ، وأذكر أن بعضهم حين خروجنا ، حملوا على حملة شعواء : ونددوا بصراحتى فى القول : ولكنى لم أبال بأقوالهم : ولم أكترث بهم : وقلت لهم لو تجردتم من النفاق وصفات المداهنة ، لرأينا أحوالنا غير ما هى عليه الآن ... لأن الأمم الحية : فى العالم المتمدين ، تربى أبناءها وحكامها على الصراحة : وتهذب أخلاقهم بالتعويد على مجابهة الحقائق : كى تكون سياستهم للبلاد رشيدة مستقيمة . . أما نحن فبدوام تملقنا الكاذب : وريائنا ونفاقنا الذى لا يحتمل : فاننا نسعى إلى بقاء الفساد ، ودوام التأخر ... فكونوا كما تريدون : واتركونى وشأنى : أكون كما أريد !!

حادثة الحدود !

كان سمو الخديوى عباس — كما ذكرنا — شديد التحمس : تملأ قلبه الوطنيه : ملتهب النفس : شبابا وقوة : وغيرة وحيوية : عند ما تبوأ عرش مصر : وكان زعماء الحزب الوطنى : ودعاته محيطين به : وكان سموه لاتفاق نزعاته معهم : يشايع مبادئهم الاستقلالية : ويشجعهم ويرعاهم بالعون والمساعدة — وكان أهم ما يسعون لتحقيقه من الاهداف ينحصر فى طلب الاعتراف ، بالاستقلال الذاتى ، لمصر وفق معاهدة سنة ١٨٤٠ وفرض الرقابة على أعمال النظار مع احترام الشعور الاسلامى بالانضمام إلى الخلافة الاسلامية .

ولما كان هناك تضارب فى المصالح بين نفوذ الدولتين الكبيرتين ، انجلترا وفرنسا ، فقد كان قنصل فرنسا المدعو ، دى ريفسوه ، يستغل الخلافات التى تنشب بين الخديوى والمعتمد البريطانى ، لتحقيق سياسة التباعد بينهما لمصلحة بلده — فكان يؤكد فى كل مناسبة ، يلمح فيها تلبد السحب فى جو هذه العلاقات ، استعداد فرنسا لمؤازرة جناب الخديوى ضد بريطانيا ، فاطمع هذ التأكيد سموه ، فكان كلما وقع خلاف ، لا يتنازل فيه عن وجهة نظره ، مهما كان فيها من شدة وحدة ، لأنه آنس من فرنسا استعدادها لمعاونته وتزكية رأيه ... ولذلك عندما قصد سموه إلى الحدود لزيارتها ، واستعراض الجيش المعسكر هناك ، عاب أنظمته ، وتدريباته ، وأنتقد القواد والرؤساء الانجليز المشرفين على ذلك ، فأمتعض اللورد كتشنر وتألم فى نفسه ، ولكنه كظم ألمه ، وبادر بعد انتهاء الاستعراضات إلى ابلاغ اللورد كرومر بما حدث ، فأتصل بدوره بوزارة الخارجية البريطانية وأفضى إليها بجملة الأمر ، وتلقى تعليماتها الصريحة بما يتخذ فى الموضوع .

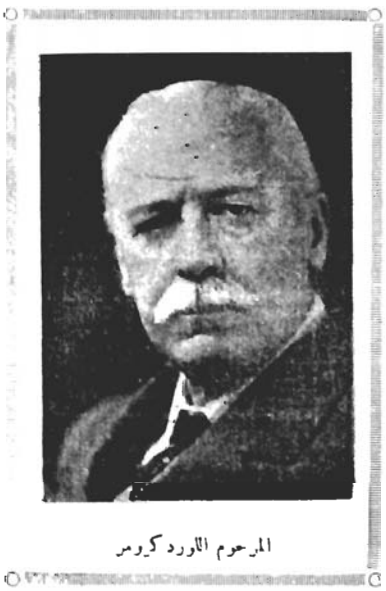

المرحوم اللورد كرومر

وفى أثناء ذلك كان سمو الخديوى قد اجتاز مديرية أسوان

وأخذ يطوف مديريات الوجه القبلي حتى بلغ إلى مديرية الفيوم — ففي ذات يوم توجه اللورد كرومر إلى دولة رياض باشا رئيس النظار وطلب إليه أن يبلغ سمو الخديوي ، بأن يعلن شكره للجيش ، لأنه يعتبر اللوم الموجه إليه لوماً لرؤسائه الانجليز واعلان شكره للورد كتشنر قائد الجيش، وثنائه على جهوده والأنظمة المتبعة فيه ؟ !

فلما سمع رياض باشا تهديد كرومر وانذاره المفاجيء ، كبر عليه الأمر ، وقال له : « كيف تطلب المستحيل !؟ إن سمو الخديوي بوصفه القائد الاعلى للجيش من حقه أن يوجه ما يشاء من الملاحظات ، وأن ينقد كل نقص يجده في الجنود والضباط ما دام يرى ذلك ضروريا ، وفي المصلحة العامة » !

فأجابه اللورد كرومر بأن سموه لم يقصد بنقده . سوى الحط من كرامة الضباط الانجليز، والمساس بأنظمتهم المتبعة في الجيش المصري، لانهم أساتذة الجيش المصري، واذن فان ماحدث هو اهانة تلحق الدولة البريطانية مباشرة !!!

وعليه اتفق الاثنان على ترك المسألة لرياض باشا للتدبر فيها ، بما يقتضي الموقف عند عودة الخديوي من رحلته — ولكن كرومر أصر على عدم عودته قبل البت في الامر ، بما يرضي رغبات الانجليز ، عندئذ تبين رياض باشا حرج موقفه ، ووقع في حيرة شديدة ، لانه لمح العناد والتهديد في سياق حديثه مع اللورد كرومر !!

موقف فرنسا المشين !

عندئذ فكر أولا في أن يقابل قنصل عام فرنسا ويستطلع رأيه في الامر ، فعندما قابله لمح فتور حماسته ، وجموده حيال ما سمعه . وأحس إلى أي حد تغيرت لهجته وأراؤه معه ، إذ قال لرياض باشا : « إن سمو الخديوي قد أسرف في شدته ، وأن فرنسا لا يمكنها التدخل في ذلك أبدا » ؟ فقال له رياض باشا : « ياجناب القنصل ، أطمئن فإني كثيراً ما قلت لسمو الخديوي أن فرنسا لا تثبت على رأي تبديه ، ولا تبر بوعد تقطعه على نفسها ، وهاهي ذي الآن تتبرأ من كل وعودها !! » فقال القنصل : « لقد قلت لسموه اننا نتداخل عندما يقع سوء تفاهم ، على ان لا يعدو هذا التداخل حدوده الودية ، بحيث يمكن تسوية المسائل المختلف عليها بطريقة لبقة » !

وبهذه الكيفية تحللت فرنسا من عهودها ، وتنصل قنصلها من مواثيقه — وكان ذلك مفهوماً اذ اطلقت انجلترا يد فرنسا في شمال افريقيا ، في نظير اطلاق يدها هي الاخرى في شؤون مصر !!

حكمة رياض باشا

إزاء ذلك لم يكن امام رياض باشا الا أحد أمرين اثنين ، أولهما أن يرفض اجابة طلب اللورد كرومر ، ولا يذهب الى الفيوم لعرض الأمر على سمو الخديوي ، فيترتب على ذلك ما يترتب من نتائج مميتة — والأمر الثاني ، هو أن يستميل سموه للعمل على تسوية المسألة ، وفق مصالح البلاد ، بما يحفظ للعرش كرامته ، وأخيراً سافر دولته بكامل هيئة الوزارة ، وعرض الأمر على سموه ، وهكذا سويت المسألة بالطريقة المعروفة .

وكان من أثر ذلك أن عاد سموه من رحلته ، ونزل في قصر القبة فترة من الزمن . وعكف على تصريف الأمور من هناك ، محتجباً عن الأنظار ، وأخيراً انتقل الى قصر عابدين ، بعد مضي مدة طويلة ، وأني اقرر ذلك لأني بحكم وظيفتي وملازمتي للمرحوم رياض باشا كنت محيطاً بدقائق الأسرار ، وخلاصة الأخبار ، مطلعاً على ما يدور خلف الستار !!

المؤتمران القبطى والاسلامى

ومن أبرز ما وقع فى عهد الخديوى عباس من الحوادث ، مصرع المرحوم بطرس غالى باشا ، بعد توليه الوزارة خلفاً للمرحوم مصطفى فهمى باشا — إذ اغتاله مجرم أثيم بعد فترة قليلة من تربعه فى منصب الحكم . ومهما تكن الأسباب التى ادت الى هذا الاغتيال السياسى ، الذى شهدته مصر فى عهدها الحديث ، فان سمو الخديوى ، وكان يولى وزيره الكثير من الثقة ، قد اظهر من روح العطف ، ما غمر معه أسرته برضاه السامى .. اذ قصد ، — خلافاً للتقاليد — بنفسه الكريمة ، الى منزله ، معزياً ، مما خفف وقع المصاب حتى لقد توجهت الحرم المصون ايضا الى حرم بطرس باشا ، وقدمت لها عزاءها الكريم — فكان هذا فى الواقع رعاية لم تعد لها رعاية أخرى لوزير سواه ! !

المغفور له بطرس غالى باشا

ولقد حدث أن بعض صغار العقول من الأقباط أدخل البعض فى نفوسهم ، بأن لهم حقوقا ضائعة يجب أن يعملوا على استكمالها ، حتى تكون معاملتهم على قدم المساواة كغيرهم من أبناء الوطن ، فانعقد الرأى بينهم على عقد مؤتمر يقررون فيه مطالبهم ويعلنون فيه أغراضهم . فنشأت بذلك فتنة بين عنصرى البلاد لا سيما وقد عقد مؤتمر اسلامى ايضا .

كيف أخمدت الفتنة

لذلك رأيت وأنا الوحيد الذى نأى بنفسه عن مواطن الشبهات ، أو الاشتراك فى هذه المؤتمرات ، اذ قاومتها وكنت حرباً عليها ، ان خير وسيلة لتجنيب البلاد الويلات التى تنجم عنها — هى أن أعرض الأمر بحذافيره على وزارة الخارجية البريطانية ، فسافرت إلى لوندرا وبسطت الموضوع من مختلف نواحيه على وزير الخارجية المستر ادوارد جراى الذى أقتنع بوجهة نظرى ، وحمد الغيره الوطنية والنزعة الانسانية التى حملتنى على أن اكلف نفسى مشقة السفر وعنائه ، للحضور خصيصاً لحل مثل هذا الاشكال ، وأصدر اوامره المشدده إلى اللورد كتشنر الذى ولى فى ذاك الوقت منصب ، العميد البريطانى ، بأن يفض هذه المشكلة فقابلنى فى لندن وتفاهم معى فى الموضوع ووعدنى أنه بمجرد أن تطأ قدمه أرض مصر يفض المؤتمرين حالا — فدعا زعماء المؤتمرين وعمل على حملهم على حلهما واعتبارهما كأن لم يكونا ، وكان فى ذلك العمل الذى لقى ارتياحا لدى اللورد كتشنر ، ما ساعد على اعادة المياه إلى مجاريها ، فحل الصفاء والسلام بين عنصرى الأمة المصرية محل الشقاق والخصام ، وبذلك تجلت وحدة الأمة فيما تعاقب من الزمن فى أجلى مظاهرها . . . !

وأنى لفخور بأنى كنت ممن سلكوا سبيل السلام والوئام ، مبتعداً كل البعد عن كل تعصب ، لأن التسامح وحب التضامن كان شعارى على الدوام ! !

حادث نفى البطريرك

كان البطريرك ، المتنيح ، الانبا كيرلس ، بطريرك الاقباط الأرثوذكس ، قديسا بمعنى الكلمة ، طاهر القلب صالح الاعمال بعيد النظر ، حكيم التفكير ، فى أعماله واقواله — وكانت له مكانه ممتازة ، وكلمة محترمة لدى الجميع من كل الملل والأديان — يستوى فى ذلك المسلمون ، والمسيحيون والأفرنج — وكان الأنجليز يحبونه كثيراً ، وكذلك الجناب الخديوى يحترمه للغاية للصفات الرفيعة التى كانت تزينه . وقد حدث أن وقع خلاف شديد ، أتسعت دعه الهوة بين المرحوم بطرس غالى باشا ، وبين غبطته ، أدى إلى أن يلتمس المجلس الملى من سمو الخديوى ، العمل على نفيه هو وزميله « المتنيح » ، نيافة ، الأنبا يوأنس — مطران الاسكندرية آنئذ — بزعم أن المبادىء التى كان يسير عليها البطريرك ، لاتطابق الآراء العصرية التى يدعو إليها رجال المجلس الملى ، ويلتمسون بها اصلاح أحوال الطائفة القبطية حتى يكون ذلك الحل ، علاجاً للأمر فتئول معه شؤونها العامة إلى أعضاء المجلس الملى الذين أخذوا على عاتقهم الاضطلاع بمهمة الاصلاح !!

المتنيح الأنبا كيرلس البطريرك الأسبق

ولقد جرت العادة ، فى المحيط القبطى ، على الخضوع لواحد من زعمائهم ممن يكون منهم فى منصب حكومى رفيع ، فيصبح لديهم مسموع الكلمة مطاعا ... ولقد عرفت شخصياً منذ نشأتى أربعة من الزعماء من هذا القبيل أولهم : المرحوم « وهبه بك الجيزاوى » باشمحاسبجى الحكومة ، الذى كان موضع ثقة سمو الخديوى اسماعيل ، وكان الأقباط جميعاً يجلونه ، ويحترمونه وينقادون لرأيه ، وثانيهم خليفته المرحوم : « دميان بك » وبعده المرحوم : « عريان بك » إلى أن حل محله المرحوم بطرس غالى باشا ، فقد كان آخر هؤلاء الزعماء الذين تملأ كلمتهم أسماع الأقباط ، وتحترم فى أوساطهم ... وبعده أصبح كل قبطى مهما كان مركزه ، ولو كان نجاراً أو حداداً يعتبر نفسه من الزعماء .. لأن الزعامة قد غدت فى بلادنا أكثر من « الهم على القلب » !

وقد كان لابد من هذه اللمحة التاريخية ، أو الاجتماعية ، للتمهيد بها فى بسط العوامل التى ساعدت على تحقيق الرغبة فى نفى البطريرك ، تلك الرغبة التى التمسها بطرس باشا من الجناب الخديوى ، وشايعه فيها جميع أعضاء المجلس الملى ، ولم يخالفه فيها أو يعارضه أحد سواى أنا . وهكذا تغلبت الاغلبية ، ولكنى بقيت وحدى على معارضتى لها ...

ولقد توسلوا لتحقيق ذلك ، بأن رفعوا بها عريضة باسم المجلس الملى ، التمسوا فيها من سمو الخديوى نفى السيد البطريرك ، وزميله مطران الاسكندرية للأسباب التى ذكرناها آنفاً .. وحاولوا أن يعملوا على أن أوقع العريضة معهم فرفضت رفضاً باتاً ، على الرغم من أنهم حاولوا بوساطة المرحومين باسيلى باشا ، ومقار باشا ، أن يقنعانى بوجاهة الاسباب التى يستندون إليها فى هذا الطلب — ولقد بذلوا مساعى جمة لدى رئيس النظار بالنيابة المرحوم عبد الرحمن رشدى باشا ، مستعينين بالمرحوم تجران باشا الذى كان صديقاً حميما لبطرس باشا ، لتزكية ملتمسهم

لدى الجناب العالى الخديوى . وهكذا تضافرت هذه القوى مجتمعة فى إقناع سموه بصواب الطلب ؛ فأصدر أمره بالموافقة عليه !!

كيف أرسل البطريرك إلى منفاه ؟

وعقب ذلك أخذ البطريرك وزميله بقوة عسكرية مسلحة : حتى أوصلوه إلى « دير البراموس » كما يؤخذ المجرمون ؛ ولكنه لم يبال بذلك بل كان طيلة رحلته مشرق الوجه : يداعب حراسة المدججين بالسلاح قائلا فى وداعة : لماذا هذه الأسلحة ، وهذا الجند ، وأنا شيخ واهن القوى ، لاقوة لى إلا بالله . والله يفعل ما يريد !! ثم يبتسم ويعقب على ذلك قائلا : « الله كريم ، يغفر للناس سيئاتهم » !!

ولا تسل عما كان لهذا الحادث من أثر سيء : ووقع أليم فى نفوس أبناء الطائفة القبطية وسواهم : الذين كانوا يعتبرون البطريرك زعيمهم الأكبر : ويقدسونه تقديساً يفوق حد الوصف : ويسجدون إجلالا لمقامه الدينى العظيم : واحتراماً لإسمه الكريم ويعتبرونه خليفة لمارى مرقص الأنجيلى

ولقد قلت فى سياق هذا الحديث أن المرحوم عبد الرحمن رشدى باشا — كان رئيساً للنظار بالنيابة — أما رئيس النظار : المرحوم مصطفى فهمى باشا : فقد كان يمضى أجازته الصيفية فى أوربا فى الوقت الذى تم فيه نفى البطريرك : فلما عاد إلى مصر : لم يرتح لما حدث : ولام بشأنه نائبه فى منصب الرئاسة لوماً شديداً : وحمله مسئولية ما حدث — على أن الحوادث أخذت تتوالى عقب ذلك سراعاً : فأقيلت الوزارة « الفهمية » وتولى الوزارة الرجل العظيم رياض باشا : فكان من باكورة أعماله الاهتمام بإعادة البطريرك المنفى وزميله : وإعلان سخطه الشديد على نفيه : إلى حد أن صارح الخديوى فى هذا الشأن بقوله :

المغفور له رياض باشا

— : « إن أفدينا لايملك نفى فرد من عامة الشعب : إلا بحكم القانون . فما الحيلة مع رئيس دينى جليل القدر : عظيم المقام يماثل (بابا روما) فى مركزه الخطير ؟ وكيف يمكن تبرير هذا العمل : لو التجأ البطريرك إلى ساحة القضاء للأنصاف مما لحقه » !!

ولقد تأثر الجناب الخديوى : وأقر رياض باشا على رأيه : وألقى تبعه هذا الخطأ الذى حدث إلى من طلبوه والتمسوا منه الموافقة عليه — ثم ترك للمرحوم رياض باشا حرية العمل لإعادة البطريرك من منفاه معززاً مكرماً !

عودة البطريرك واستقباله العظيم

وكان رياض باشا عظيم الثقة بى : وبالنظر لما يعلمه من عدم رضائى عن نفى البطريرك : استدعانى واستطلع رأيى عن خير الوسائل التى يمكن أن يكون فيها أعظم ترضية للبطريرك : بحيث يعود موفور الكرامة : مرفوع الرأس ...

وهنا عرضت عليه : بأن خير ترضية ينالها غبطة البطريرك عما لحقه من أساءة أن تلتمس الهيئة التى طلبت نفيه : من الحكومة العمل على إرجاعه : فيكون فى ذلك أصدق إقرار منها ببطلان عملها . . .

ثم على الحكومة عند وصوله إلى محطة العاصمة : أن تعد له استقبالا رسمياً يشترك فيه كبار الموظفين : وعلية القوم : مع ثلة عسكرية تؤدى له التحية اللائقة بمقامه — ثم يستقبله سمو الخديوى : ويقلده بيده الكريمة الوشاح المجيدى الأكبر : دلالة رضاه السامى

ولقد سر رياض باشا بهذا الاقتراح : فأقره : وبادر بتنفيذه — وهكذا كانت عودة السيد البطريرك من الأيام السعيدة بل عيداً عظيما من أبهج أعياد الأمة المصرية جمعاء !

عفا الله عما سلف !

والطريف بعد ذلك أن المرحوم بطرس غالى باشا طلب منى أن أرجو السيد البطريرك فى أن يزور ابناءه من الذين كانوا مختلفين معه : علامة صفحه عنهم : وبرهانا منه لتناسيه لأساءتهم : فلبيت طلبه : وتفضل غبطة البطريرك — وكانت محبته لى عظيمة : وتقديره لعواطفى نحوه تملأ ثقة بى — إلى أجابتى لما طلبته منه : وتفضل فدعانى لمرافقته أثناء زياراته لهم ، ومنهم بطرس باشا نفسه — وكان يوما مشهودا تجلى فيه الوئام التام والسرور العام لأستتباب الوئام بين غبطة البطريرك وأبنائه !!

إلغاء المجلس الملى

ولما هدأت الأمور : تم الاتفاق على إلغاء المجلس الملى الذى كان سببا فى نفى السيد البطريرك — ولو إلغاء مؤقتا — على أن تقوم مقامه : لجنة ملية تتألف من أربعة من البارزين : لمباشرة أعماله : وقد وقع الاختيار علىّ وعلى المرحومين حنا بك باخوم ووهبه بك شلبى وبطرس بك يوسف — وبقينا نمارس أعمالنا بالاتفاق مع غبطة البطريرك أكثر من عشر سنوات : من غير أن يقع بيننا وبين غبطة البطريرك الذى كان يرأس جلسات اللجنة أى خلاف فى شأن من الشؤون : جل أو هان !!

ولقد ذهب غبطته فى التسامح معنا إلى حد أن أقرنا على ما طلبناه من تأليف مجالس فرعية ملية فى الأقاليم وهى التى لا يزال معمولا بها الى اليوم : تؤدى أعمالها على خير الوجوه !!

نشوب الخلاف من جديد

وظلت الأحوال سائرة فى هدوء وسكينة ، إلى أن نهض فريق من الأقباط ، ممن لا يهنأ لهم بال فى ظل السلام فسعوا لدى السلطات الحكومية ، للعمل على ايجاد مجلس ملى ينتخب ليحل محل المجلس المنحل . وبالفعل أجيبت مطالبهم . وأجريت الانتخابات ، فأخذ الأعضاء الجدد ، فى التشاغب والتعالى أزاء هذا البطريرك الورع المتواضع ، والقديس الطاهر الأنباكيرلس ، وكان ذلك من الأسباب التى جعلت صدره يضيق بتصرفاتهم ، ونفسه العالية لاتحتمل غرورهم ، فما كان منه الا ان أمر بطردهم ، والحيلولة بينهم وبين دخولهم الديوان الذى كانوا يجتمعون فيه — وبذلك ظلت الطائفة القبطية محرومة لفترة طويلة من المجالس الملية !!

كيف استقامت الاحوال

ولقد لجأ بعض الأقباط إلى المرحوم بطرس غالى باشا لكى يعمل على أيجاد حل لهذه المشكلة التى نشأت ، ولكنه رفض أن يكون له شأن فيها . . ومن ثم التجأوا إلى سمو الخديوى ، ورفعوا لمقامه السامى ظلامتهم ،فكان رأى سمو الجناب الخديوى أن هذا الرجل (أى البطريرك) كله بركة . وكل عمل لايرضيه ، لايمكن تحقيقه ، لاسيما وأنه فى أيامه الأخيرة . وأخيراً قصدتنى طوائف كثيرة من المتظلمين وبسطوا الى شكاويهم قائلين : «لجأنا إلى بطرس باشا ، فأبى أن يتداخل فى الأمر لأصلاح الحالة . وإلى السراى الخديوية ، فلم يسمع لنا ـ والحالة بلغت حد الحروجة . إذ تعطلت مصالح الطائفة القبطية ، لاسيما مسائل الطلاق والزواج . . ثم شفعوا ذلك بطلب وساطتى لوضع حد لهذه المسالة ، فوعدتهم بأن أعمل جهد استطاعتى ، مستعيناً بالله وثقتهم » ! !

وكان أول ما عملت ، أن قصدت فى اليوم التالى إلى دار المندوب السامى ، حيث قابلت اللورد كتشنر ، عميد الدولة البريطانيـــة ، وعرضت عليه تفصيلات المسألة ودقائقها . وأفهمته بأن هذه المشكلة قد استعصى حلها على الجميع . ولكنى مؤمن بقدرته هو على إيجاد تفريج لها . . . فلما سمع جنابه بذلك . ابتسم وقال : «كن على ثقة بأنى سأكون عند حسن حظك » ! ولكنه طلب منى إعداد مذكرة بالأمر . والحلول التى اقترحها فلبيت طلبه ، وماكان منه إلا أن عمل على اصدار قرار باعادة تأليف المجلس الملى . على أن يشترك فى عضويته بعض رجال الاكليروس من المطارنة ! !

وأمر اللورد كتشنر بأن أعمل على اقناع غبطة البطريرك بقبول هذه الحلول ، فنزل غبطته عند رجائنا ، وكتب للورد معرباً عن ذلك بارتياح ! !

نجـــاح باهر

ولقد طربت لهذا النجاح . لأنى مؤمن بأن فيه خدمة وطنية عامة ، وظللت دائباً على العمل لأستكمال الأنظمة لهيئة المجلس الجديد ، التى يسير بمقتضاها سيراً حسناً ، ... ولقد تصادف فى هـذه الفترة ، أن وصلتنى دعوة من [illegible] لحضور حفلة افتتاح «كلية غوردون» .. ولكن اللورد كتشنر سرسأسنه على نجاح ما أشار به ، اوحى الىّ بالتخلف عن تلبية الدعوة ، لكى يمر بحث مشروع المجلس الملى امام مجلس شورى القوانين ، الى أن يصدر المرسوم الخديوى بتنفيذه ـ وقد لوحظ أن يكون ثلث أعضاء المجلس من رجال الاكليروس ، وأن احكامه تكون نافذة بأغلبية الاصوات ، حتى وان كانت لم تظفر بموافقة البطريرك . . . ونص ايضاً على تكوين مجلس خاص لبحث ايرادات ومصروفات الأوقاف الخاصة بالأديرة . ولكن الظروف لم تتح لهذا المجلس أن يجتمع ، فظلت هذه الاوقاف الى الآن غنيمة باردة للطامعين ، ولقمة سائغة لكل متزعم ! !

ولقد أستمر المجلس قائماً بعض الزمن ، الى أن أستأثرت رحمة الله ، بالسيد البطريرك ، فانطوت حياته الطاهرة مذكوراً بما جبل به من البركة . والتواضع ، مع الأنفة وعلو النفس ، حتى أننى أذكر من نوادره أن بطرس باشا كتب له ذات يوم كتاباً مفصلا يطلب فيه تنفيذ أمر ، لم يكن غبطته ليقره ، فما كان منه الا أن أشر بقلمه فى اعلاه بما يأتى « عرضت على مسامعنا عريضتكم ، ولا نوافقكم على ما جاء فيها » ! ! «كيرلس»

ومن هذه العبارة القصيرة تتضح كيف كان التواضع مقروناً بعظمة النفس، والأنفة، والكبرياء، ابرز صفاته، مع التواضع والحرص على الكرامة النفسية !!

انشاء وزارة الاوقاف

وفى عهد الخديوى عباس عمت الشكوى وتعالت الأصوات بالأحتجاج على مظاهر الفوضى التى أغرقت ادارة الاوقاف العمومية، فلأجل وضع حد لعبث العابثين بها، وتلافياً لأوجه النقص الكثيرة التى ظهرت للجميع، صدرت أوامر اللورد كتشنر بتأليف نظارة يعهد اليها القيام بأدارة الاوقاف، حتى تصان حقوق المستحقين، برقابة الحكومة لها واشرافها عليها — وفى نفس الوقت رؤى انشاء وزارة للزراعة، لأن الزراعة هى عماد الثروة الأساسية، فى الاقتصاد القومى المصرى .. وفعلا انشئت الوزارتان فى وقت واحد ... وانى اذكر انه لما عرضت هاتان المسألتان لأقرار ميزانياتهما، مرت بغير معارضة ميزانية وزارة الزراعة، اما ميزانية وزارة الأوقاف فقد لقيت معارضة شديدة، اذ وقف المغفور له الزعيم المشهور « سعد زغلول باشا » وطالب بابقائها ادارة كما هى — ولما كنت رئيساً للجنة المالية بالجمعية التشريعية، فقد كان لا بد لى من الأدلاء برأيى فقلت :

— إنى ليؤسفنى أشد الأسف، أن أسمع هذا الاعتراض من الزميل المحترم سعد زغلول باشا، وهو أعلم الناس بمدى ما تطرق الى ادارة الأوقاف من ألوان المفاسد، وضياع حقوق الناس، بما يحدث فيها من التلاعب فى ايراداتها، مخالفة لشروط الواقفين ... والآن، وقد أراد الله أن ننهض باقرار عمل، من شانه صيانة أموال الناس واقامة موازين العدالة، ينهض سعد باشا مطالباً بالدعوة الى أبقاء المظالم التى ضج منها الناس بالشكوى ..!

وإن هذه النظارة حين تنشأ فى مصر، سوف تؤدى للعالمين خدمات جلى .. والواجب الانسانى يقتضى كل فرد منا أن ينافح عنها، ويعارض من يطالب بإزالتها. وأعتقد أن حضرات زملائى الموقرين أعضاء الجمعية سوف يقرون هذا الرأى.

ولقد قوبل ذلك فعلا بالموافقة الأجماعية، وحدث أن قابلنى سعد باشا بعد ارفضاض الجلسة فبادرنى قائلا : « لقد كسبت القضية ياقليني باشا » !.. فأجبته على الفور قائلا : « إنى على يقين ياباشا أن ضميرك مرتاح لذلك » !!

فأبتسم — رحمه الله — وقال وهو يهز رأسه : « الله الموفق » !!

عوائد على جيش الاحتلال الانجليزى

ومن الأمور التى حدثت فى ذلك العهد، أن المستر « متشل أنس » وكيل نظارة المالية، أستدعانى ذات يوم وبادرنى بالسؤال عن سبب تحصيل عوائد الدخوليات عن « جيش الاحتلال الانجليزى »، ومعافاة الجيش المصرى منها ... فأجبته بأنى فى ذلك العمل، أسير بمقتضى الأوامر والقوانين، ولدى مرسوم خديوى بذلك.. قال أود معافاة جيش الأحتلال، قلت : عليك بأستصدار مرسوم بذلك ... فقال لى : « إن كلامى يكفى، واوامرى تنفذ ما ننشده من طلبات » ! ! فأجبته : « وهل كلامك يعتبر قانوناً ؟ » قال : « إذن نحن غير متفقين فى الرأى » ! قلت : « طبعاً ! لأنه لا يرضيك أن اخالف القوانين ! بل أنا حريص على التمسك باهدابها ! »

ولقد اغضب هذا الحديث المستر « متشل أنس » وكتب تقريراً بما حدث للسير غورست الذى كان آنئذ مستشاراً للمالية ... فضحك منه كثيراً وعلق عليه قائلا : « الحق مع قلينى باشا » ! ثم استدعانى وسألنى قائلا : « لماذا أغضبت متشل » ؟ قلت : « إنه يطالبنى بمخالفة القوانين . وانا بحكم منصبى الحارس الأمين عليها » ! قال : « نعم رأيك هو الصواب » !

المرحوم السير غورست

ثم أستدرك يقول : « ولكن ما رأيك فى أننا نريد حلا للمسألة . من غير الالتجاء الى أستصدار مرسوم » ! فأجبته : « يمكن ايجاد طريقة . تدفع بموجبها الحكومة لجيش الأحتلال مبلغاً سنوياً كأعانة ... وعلى جيش الأحتلال أن يتنازل عنها للحكومة فى نظير معافاته من عوائد الدخوليات . . ويكفى لتنفيذ ذلك اصدار قرار وزارى به ، وفعلا تم ذلك ، وعمل به ...

استبدال الكيل بالوزن !

وكانت طائفة الكيالين فى ذلك الوقت تغتال اموال البائع والشارى ، عند مايلجآن اليهم فى الوساطة بينهما .. فوجدت أن خير ضمان لأستيفاء حقوقهما ، واقامة العدل بينهما ، أن أعمل على أستبدال الكيل بالوزن بعد اجراء معادلات دقيقة ، وتقدمت الى مجلس شورى القوانين بالأمر فاقرنى عليه . ولكن الكيالين ، وهم جمهور كبير جأروا بالشكوى من الحيف الذى نالهم من جراء هذا العمل .. فلكى أعمل على مرضاتهم رأيت أن اعهد اليهم بمهمة نقل الغلال من المراكب الى الساحل ، ووضعها على الموازين لقاء أجر معين يعادل الأجر الذى كانوا يتقاضونه على الكيل . وبذلك كفوا عن الشكوى ، وأنتظمت الأعمال ، وضمنت العدالة ...

والظاهر أن هذا العمل ، عز على المستر « متشل أنس » ـ الذى قلت أنه كان يميل للشر ـ فرفع تقريراً ضدى نال فيه من عملى ، إلى اللورد كرومر قال فيه : « أننى رجل أصبح يخشى منه . لأنى أستطعت أن أستميل طائفة الكيالين ـ وهم المشهورون بعنادهم ، ومخالفتهم الأوامر الحكومية ، بمجرد عمل بسيط » !

ولقد استدعاه اللورد كرومر ـ وكان رجلا حكيما بعيد النظر ـ وقال له : « ما أعجب تصرفك ! بدلا من أن تشكر موظفاً على حسن سياسته فى اخماد الفتن . تتهجم عليه فى تقريرك الذى يدل على قصر النظر ، وقلة الحيلة » !

وكانت النتيجة انى تلقيت خطاب شكر رسمى على هذا العمل العظيم !

مخالفة أمر الوزير

ومن الحوادث الطريفة التى وقعت لى فى ذلك العهد . عند ما كنت مراقباً عاماً للأموال الغير مقررة ومديراً للدخوليات — أن تولى المغفور له بطرس غالى باشا نظارة المالية . ففى ذات يوم أستدعانى وقال لى : « توجد عندك بالمصلحة وظيفة ـ خالية بمرتب ٤٠ جنيها فى الشهر وأحب أن تعين فيها « نقولا البلدى » ! ؟ فقلت له مجيباً : « سوف أنظر فى الأمر إن شاء الله » !

فقال فى شىء من الغضب : «تنظر فى الأمر . . ؟ وهل أستدعيتك لكى استشيرك؟ انما أنا استدعيتك لأصدر اليك الأمر بتعيينه » ! ! فأجبته على الفور : « مادام الأمر كذلك ، فلن يمكننى تعيينه » ! !

عندئذ غضب الوزير ، وقال وهو يتميز غيظاً : « إذن نحن غير متفقين » فأجبته : « نعم . . وهو كذلك » !

فما كان منه بعد هذا ، الا أن سعى للتخلص منى . فرفع الامر لوكيل المالية ، وكان أيامئذ « السير غورست » وكان وزراء ذلك العهد يستخدمون نفوذ الموظفين الانجليز فى الحكومة المصرية لتنفيذ مآربهم . . فأستدعانى السير غورست وسألنى عن السبب الذى من أجله خالفت أمر وزيرى القاضى بتعيين شخص يريده ، فأجبته : « أننى خالفت أمره فى سبيل المصلحة العامة . وأرجو أن اكرر أمامكم بأنى لن أعين الشخص الذى ذكره بالذات » !

قلت . ولأجل أن تتبينوا وجه المصلحة فى هذا الرفض . أرجوا أن تخاطبوا فى شأنه جناب « سيتل باشا » بنظارة الحربية . بخطاب سرى للاستفسار عن ملف خدمته . عند ما كان يعمل تحت رئاسته . وانى مؤمن بأن فى ذلك حسم النزاع . وفصل الخطاب . . !

وبالفعل كتب « السير غورست » بما طلبه . فجاء الرد من « سيتل باشا » قاطعاً بعدم تعيين هذا الشخص فى أية وظيفة حكومية . لأن سلوكه واخلاقه لا تتفق مع كرامة الموظفين الجديرين بالأحترام ! !

فلما تلقى السير غورست ذلك . استدعانى . وهنأنى على موقفى ، قائلا : « إن حرصك على حسن نظام العمل جعلك تكاد تضحى بشخصك وأنى اهنئك . لأنك كنت شجاعاً فى الحق . وشريفاً فى الخصومة ، وسوف أتكلم مع الوزير بما يلزم . . » ! !

وانتهت المسألة عند هذا الأمر . . .

(المزاف) قايتى باشا

حفلة ساهرة رسمية

ومن الحوادث التى وقعت فى ذلك العهد وكان لها فى أبان حدوثها دوى فى دوائر الحكومة . حادثة من الدلائل الناجمة فى الاعتداد بالنفس . والاستقلال فى الرأى . والأنفة والإباء . ومع فى العزة والكرامة ما نورده فيما يلى كما حدث .

عند ما تولى المرحوم بطرس غالى باشا منصب وزارة الخارجية . زين له بعض المقربين إليه إحياء حفلة راقصة بمنزله يدعو إليها رجال السلك السياسى والعظماء والوزراء وبعض الأصدقاء . وكان الضوء الكهربائى فى ذلك الوقت لم يعم العاصمة أو ينتشر فيها . فأشار عليه البعض أنه لكى تستكمل الحفلة التى يقيمها وسائل بهجتها وأسباب فخامتها . يجب أن تضاء بنور الكهرباء . وبما أنه يوجد بدار « الضربخانة المصرية » لصك النقود . « وابور » لتوليد الكهرباء يستطيع إذا أحضره أن يسد هذا النقص . ويؤدى هذه المهمة ولما كانت « الضربخانة » تتبع المصلحة التى أديرها أنا بالمالية . فقد كان تحقيقها عسيراً

فانبرى المرحوم حنا بك باخوم وكان وقتئذ موظفاً بوزارة الحقانية ، وقال أنه فى إمكانه تذليل هذه العقبة اعتقاداً منه بأن صداقته لمدير الضربخانة « أحمد بك أسعد » تكفل له الحصول على « وابور » الكهرباء بغير علم فعهد بطرس باشا اليه بإتمام هذا الأمر وفعلا توجه حنا بك الى أسعد بك وطلب منه تنفيذ هذه المهمة . فلم يسع أسعد إلا رفضها قائلا :

— « أنه ليس فى استطاعتى أن أتصرف فى شى على الاطلاق بدون تلقى أوامر رئيسى قلينى باشا بصفته المدير العام التابعة له هذه المصلحة . فاستأذنه فان قبل فليأمرنى وأنا أطيع وأنفذ .. »

فحين ذاك لم يجد حنا بك باخوم مناصاً من أن يطلب إليه الاستئذان بمعرفته وعلى هذا تحدث إلى تلفونياً وبسط لى تفاصيل مادار بينهما من الحديث ، وطلب منى أن آمره بما يجب عمله . فأجبته بأن مثل هذه الأحوال لا يمكنى أن اتصرف فيها بالتليفون ، وطلبت إليه أن يرسل إلى خطاباً بما جرى بينهما وأنا أتصرف فيه بما يقتضيه الأمر .. ولكنى لا أخفى القارىء ، غضبت لهذا التصرف غضبا شديداً .

ومن الطبيعى أنى اندهشت وبلغ بى التأثير مبلغا كبيراً لتدخل موظفين خارجين عن دائرة وزارة المالية ، فى شئون مصلحة أديرها . ولا يمتون إليها بصلة من صلات العمل ، وأعتبرت أن ذلك التدخل لونا من التحدى والاستهانة بالحقوق . فضلاً عما ينجم عنه من اضطراب الأعمال والاخلال بالنظام وعلى هذا ما كدت أتلقى خطاب مدير « الضربخانة » حتى عرضته على جناب المستر دوكنس الذى كان وقتئذ يشغل منصب وكيل وزارة المالية ، وقلت له إن هذا التصرف يوجب الفوضى فى سير الأعمال ، وبث روح التمرد والنزوع إلى العصيان وعدم الامتثال لأوامر الرؤساء . وبناء على هذا الحديث تم الاتفاق بيننا على تقديم حنا بك باخوم إلى مجلس التأديب وأستقر الرأى على الكتابة لبطرس باشا منبهينه إلى مافى هذا التصرف من الاخلال بسير الأعمال مما لا يصح العودة إليه فى مستقبل الأيام .

ولقد أحدث هذا القرار ضجة هائلة فى الدوائر الحكومية ، حتى أن المرحوم ابراهيم باشا فؤاد المناسترلى وزير الحقانية فى وقتها : زارنى فى مكتبى ، ورجانى أن أعمل بكل ما وسعنى الجهد على صرف النظر عن محاكمة حنا بك باخوم ، بسبب هذه المسألة . وبعد أخذ ورد ، ورجاء وشفاعات ، قبلت ذلك مراضاة له : على شرط أن يقبل وكيل المالية بذلك أولا . فقال لى المناسترلى باشا أنه قابله قبل أن يقابلنى ورجاه نفس هذا الرجاء ، فأحال الأمر على قائلا أنه متعلق بى ، فاذا قبلت فلا أعتراض منه على قبولى . وحينئذ توجهت لمقابلة المستر دوكنس وقلت له . انى مراعاة لخاطر وزير الحقانية ، لا أرى مانعا من صرف النظر عن محاكمة حنا بك باخوم .. فوافق على ذلك ، وقال معقبا على موافقته . انى أعتقد بعد ما أخذ هذا الأمر كل هذه الأهمية ، وما حدث حوله من الضجة فى الدوائر الحكومية ، أنه لن يتجاسر بعد الان أحد من الموظفين . صغيرا كان أم كبيراً . على التدخل فى شؤون غيره .. وبذلك أسدل الستار على هذا الحادث ! . .

حرية الرأى

كذلك أذكر الحادث الاتى ومنه يتبين المعنى الصحيح لتقديس حرية الرأى :

كان لطيف بك سليم مديراً للفيوم فى عهد الاحتلال الانكليزى . وكان أحد الذين تشبعت نفوسهم بالوطنية

عهد المستشارين الاجانب !

وبعد الاحتلال الانجليزى أصبح يوجد فى كل نظارة مستشار منهم ، للأشراف على سير الأحوال — وكان المستشار المالى على وجه التحديد ، معدوداً فى النفوذ والسلطة ، الرجل الثانى بعد العميد البريطانى .. وكان لنظار مصر العظام معهم مواقف مشهودة ، فى بعض المسائل تدل على ما كانوا يمتازون به من الأنفة ، والعزة الوطنية ، والكرامة الانسانية

أملابس صيد ؟

حدث ذات يوم أن كان رياض باشا بنظارة المالية ، فى غرفته ، فدخل عليه المستشار المالى ، وكان يلبس ملابس بيضاء ، وحزاماً أحمر ، فلم يرض دولته هذا المنظر لموظف مصرى ... فنظر إليه فى شىء من الدهشة وسأله: « هل جنابك قادم من الصيد ؟ » . فأجابه : « لماذا يا دولة الباشا » ؟ فأشار إلى ملابسه وقال : « لأن هذه الملابس ليست ملابس مصالح ؟ بل هى أعدت للصيد » ! فخجل المستشار وفهم قصده .. وفى الحال عاد إلى منزله ، وغير ملابسه ، ووضع طربوشا على رأسه ، ورجع إلى الديوان واستأذن فى الدخول على رياض باشا .. الذى ما كاد يراه حتى ضحك فى وجهه وقال : « نعم !.. هذه هى ملابس النظارة يا جناب المستشار !! »

لا يفرط فى حقه !

حدث مرة أن دخل السير غورست عند ما كان مراقبا للأموال المقررة بالمالية على رياض باشا لعرض بعض الاوراق .. وكان من ضمنها عريضة وردت إليه بالتظلم فى أمر . فقال : « لقد وردت لى هذه العريضة ، فأشرت عليها بكذا وكذا — ولكن قبل أن أرسل الاوراق إلى جهة اختصاصها أردت أن أعرضها عليكم . لارى هل نتفق فى الرأى .. فقال له رياض باشا : « اعطنى العريضة » ثم أخذها ومزقها أربا أربا ... ووجه اليه كلامه قائلا: « أسمع . لا وجه لتقديم التظلمات إلا للوزير فقط .. والا فهل عينت انت وزيراً آخر للبت فى هذه الأمور » ! وهنا سكت غورست مع ما كان معروفاً عنه من الأنفة والكبرياء ، وغنم من السلامة بالصمت ، وخرج بالصمت عن لا . ونعم !

وبعد ذلك أصدر رياض باشا منشوراً ، بأن كل الشكاوى لا ترفع إلا للوزير مباشرة ، دون سواه ، وإلا لن ينظر إليها ...

الاعتداد بالنفس !

واذكر من مواقفه مع النظار أنفسهم ، ما يمثل مواقفه مع الانجليز ، فى الاعتداد بنفسه ، من ذلك موقفه مع اللورد كرومر فى تعيين المستر « سكوت » مستشاراً للحقانية ، وما كان له مع الخديوى ، مما نمر عليه مر الكرام .. ثم موقفه مع المرحوم فخرى باشا حين أصدر منشوراً موقعاً بامضائه بناء على تعليقات صدرت إليه من المستشار الانجليزى المذكور ، فانه بمجرد اطلاعه عليه دعاه اليه وسأله : « هل كنتم فى غيبوبة ساعة أصدرتم هذا المنشور؟ » أراد فخرى باشا الاعتذار عنه ، والتخلص من تبعته ... لم يقبل اعتذاره ، وخيره بأن يغيره بآخر (أعطاه

قلت :

— إذن يجب الأذعان لما نراه كما هو الواجب ...

وهنا أخذت آراؤنا تنساب الى طريقها الطبيعى لتوضع فى نصابها الصحيح . ولتاخذ مكانها من الاعتبار، وأخذ رئيس المجلس يحترم أقوال هيئة المجلس ويحل آرائهم محلها المختار من الوقار !

ومن غرائب الصدف بعد هذا الحديث . أن قابل المرحوم المسيو روكاسيرا الذى كان مديراً لقسم قضايا المالية وعضو الهيئة التاديبية أحد الوزراء وقال له :

— اليوم حدثت مشادة عنيفة بين قلينى بك واللورد ملنر فى أثناء انعقاد المجلس وأنا اعتقد أن هذا الأمر يقضى الى خروج قلينى بك من خدمة الحكومة . فلما تقابلت مع هذا الوزير واستوضحنى جلية الأمر ، شرحت له تفاصيل ما حدث وعقبت على ذلك بقولى :

— إننى فعلت ما فعلت مدفوعاً بما خوله لى القانون من الحقوق ولست أبالى الوظيفة ما دمت نخور الضمير، بما أديت من الواجبات . . !

وسارت مراحل التحقيق أشواطاً . حتى أشرفت على نهايتها . فكنت أنا والمسيو روكاسيرا العضوين الوحيدين المقتنعين ببراءة مدير المصلحة مما نسب اليه . وأعلنا هذا الرأى . ولكن باقى الأعضاء شايعوا رئيس المجلس فيما يراه وقرروا بإدانته . وذلك بإيقافه عن العمل ثلاثة أشهر بدون مرتب

ولما كان قرار المجلس لاينفذ إلا اذا صدق الوزير عليه فقد رفع اليه توطئة للتصديق عليه . ولكن الوزير رفض التصديق عليه قائلا :

— لابد لى أن أسمع آراء كل عضو فى المجلس

وفعلا استدعانا جميعا . وسمع أقوالنا . فلم يجد ما يبرر هذا الحكم فقال :

— انى غير مقتنع للآن بصواب هذا الحكم ولا بد للمسألة من احالتها على المجلس المخصوص

وقال : ولو انى أخرجت من المجلس المخصوص اللورد ملنر فانى واثق من أن ليجريل رئيسه سيصدق على الحكم ولكنى قد قمت بالواجب وارضيت ذمتى ...

وعلى ذلك قد أمرت بعزل اللورد ملنر من المجلس المخصوص لأنه لايصلح أن يكون رئيس المجلس الاستئنافى. فلما حول الأمر الى المجلس المخصوص الذى كان يرأسه المسيو ليجريل الذى كان وقتها يشغل منصب النائب العام صدق على الحكم الذى أصدره مجلس التاديب القاضى بإيقاف هذا المدير ثلاثة اشهر بدون مرتب ونقله الى وزارة أخرى .

ولما انتهت المسألة عند هذا الحد ، تقابل معى اللورد ملنر ، وخاطبنى قائلا : انك قد كبرت فى نظرى ، لموقفك المشرف . فقلت له جواباً على ذلك :

— انى فعلت مافعلت لأنى أعرف مع من أتكلم ، وصفاته فى العدالة والانصاف مشهورة

فضحك اللورد ملنر ملء شدقيه ، وقال وقد شاع السرور على أساريره :

— أؤكد لك انى لم أقدر شخصاً من أعضاء الهيئة تقديرى لك . وقد كبرت فى نظرى . وأنت فى موقف المعارض لى . وتجلت لى فى شخصك ، ما كنت أعتقده فيك .. ومد إلى يده ، وهو يصافحنى بحرارة ، قائلا فى تأثر عميق .

— نحن أصدقاء !!

تلاعب الكبار بالصغار !

كان يتبع مصلحة الأموال الغير مقررة التى كنت اديرها جملة مصالح أخرى ، منها « مصلحة الدخوليات » كما ذكرت سالفاً وهى التى كان يوكل اليها جباية الضرائب عن كل ما يدخل مدينة القاهرة من البضائع وكان فى هذه المصلحة عدد كبير من الموظفين . وكان يوجد بها ١٨٠ مكتب تليفون . و ٤٠ مكتب لتحصيل الضرائب فى دائرة المدينة . كما يتبعها « كردون » يحرس أطراف المدينة وضواحيها مكون من ١٢٠٠ ملاحظ لهم زى رسمى . فضلا عن عدد عظيم من الكتاب والصيارف عدا المأمورين والمفتشين والمعاونين ونحو ذلك .

وقد حدث إن أحد المفتشين ، وكان يدعى « مصطفى أفندى حسن » وكان من خيرة موظفى المصلحة ، وأنشطهم عملا ، وأكثرهم كفاية ، تقدم إلى يوماً ، ورجانى أن اساعده وأسدى اليه مكرمة ، وذلك بتوظيف شخص ادعى أنه من أقربائه ، ولو فى وظيفة قبانى بسيط ، فلم أر بأسا فى أن أستجيب لرجائه ، معاونة منى له . وفعلا أمرت باشكاتب المصلحة أو مدير المستخدمين بتعيينه بمرتب ثلاثة جنيهات فى الشهر

ومرت فترة من الزمن على هذا الامر ، إلى أن وفد إلى الوزارة فى ذات يوم شيخ كهل طاعن فى السن ، على وجهه سيمات المهابة والوقار ، بلحية بيضاء غزيرة الشعر ، يلبس « الجبة والقفطان » وعلى رأسه طربوش « وكوفية » من الحرير وطلب من الحاجب أن يستأذن فى الدخول الى ، فأمرت له بذلك . ولما مثل بين يدى أمرته بالجلوس ، وأنا أشير إلى أحد المقاعد . فقال لا يصح أن أجلس فى حضرتك — قلت اجلس ، وأعلم أن الطاعة خير من الادب ... فلما أستوى فى مقعده ، سألته من أنت ؟ ؟ فأجابنى — أنا ياسيدى كنت رئيساً للطهاة بالقصر العالى (قصر والدة الخديوى العظيم اسماعيل) ولم أرزق فى حياتى الا بفتاة واحدة . فما كان من مصطفى أفندى حسن المفتش الا أن أستهواها ، وأفسد عليها حياة الطهر والعفاف ، وأستجلب لها زوجاً صورياً من الطريق ، ليتخذه ستاراً يختفى وراءه لقضاء مآربه الخسيسة — ومن بواعث الغرابة أنه التمس من سعادتكم تعيينه فى وظيفة قبانى ، ارضاء له — وكان فى كل مساء يحيى حفلات ساهرة ، يحضرها بعض أصدقائه ، فيظلوا طيلة ليلهم يرقصون ويسمرون ، ويجرعون كؤوس الخمر ، ... وظلت الحال سائرة على هذه الوتيرة ، بغير أن يتصل بعلمى شىء مع مساسه بشرفى ، ومع مايلحقنى من العار من جرائه ، نظراً لما هو عليه من الشرور التى أغرق فى أمواجها المصطخبة حياة ابنتى الطائشة فسألته ومن أين علمت بذلك ، هل أخبرتك أبنتك به ، وأجاب نعم هى التى أخبرتنى بكل شىء . . وهنا أستحضرت الفتاة وسألتها عما يقوله والدها ، فاعترفت أمامى بكل شىء ، من غير زيادة ولا نقصان . فأمرتهما بالانتظار ، وأستحضرت زوجها الصورى « القبانى » ، فلما حضر سألته هل يعرف هذه السيدة ؟ (مشيراً إلى زوجته الصورية) ؟ ! فقال . لا ياسيدى فقلت له : اذن كيف تزوجت بها . . . اليست زوجتك ؟ فاجاب آه لقد زوجونى بها من غير أن أراها ! ! . . فقلت له : حضرتك عامل « برفان » برضاك ! .. ثم أستحضرت مأذونا وأمرته بأن يكتب وثيقة الطلاق فى الحال وأمرت بطرده من وظيفته ، وسلمت الفتاة لأبيها وقلت : ياعم خذ أبنتك وأذهب لحال سبيلك ، وأسهر على مراقبتها . . .

ومن لطائف ما حدث قبيل مغادرة الرجل وابنته لغرفتى ، أن التفتت إلى وفى نظرة استعطاف وتوسل . ولهجة رجاء وتذلل قالت لى :

— « أرجوك ياسعادة الباشا وحياة رأسك أن لا تؤذى مصطفى أفندى » !

وعقدت بعد ذلك مجلس التأديب فى الحال . وتوليت بنفسى رئاسته وقررت محاكمة هذا الموظف ، وذلك بانزال مرتبه من ٢٤ جنيه الى ١٢ جنيه . وبذلك وضعنا العدالة فى نصابها، واقتصصنا من هذا المذنب الوضيع!

خصومى يعملون على عدم تعيينى فى الجمعية التشريعية ؟

ومن حوادث ذلك العهد أيضاً ، أنه عند ما أستقر الرأى على أنشاء الجمعية التشريعية . أخذت الحكومة فى اختيار أعضائها من بين عظماء الأمة . وأعيان البلاد . ولقد وقع الأختيار على لأكون من أعضائها ، وأدرج بذلك أسمى فى كشف الأعضاء . . ولكن بعضهم ـ ممن يملأ الحسد نفوسهم ـ أراد محاربة لى . العمل على أستبعاد أسمى . ليحل محلى أحد الأشخاص الذين يتمتعون « بحماية أجنبية » وكان هو الآخر . قد استعان على تحقيق هذا الأمل . ببعض أصحاب النفوذ فى الحكومة !

فلما علمت بما يدور فى الخفاء . وما بيته لى خصومى . ووقفت من بعض أصدقائى فى الحكومة بما يرومون تنفيذه . قصدت على الفور إلى جناب اللورد كتشنر ـ وهو الذى أشترك مع سمو الخديوى فى أختيار الأعضاء وأخبرته بجلية السر فى المسأله . فأبدى جنابه أسفه الشديد لما يحدث ، وطلب فى الحال رئيس الحكومة تليفونياً ، وتحدث إليه فى الأمر . — وكنت جالساً بجواره ساعة الحديث وقال له :

ـ أنه لن يقبل فى الجمعية التشريعية أشخاصاً مهما كانوا . تحت الحمايات الأجنبية . . وأن فلينى باشا . لا يمكن أن يحل محله أنسان آخر على الأطلاق . . فكان جواب رئيس الحكومة بالموافقة والتأمين على كلام اللورد ! !

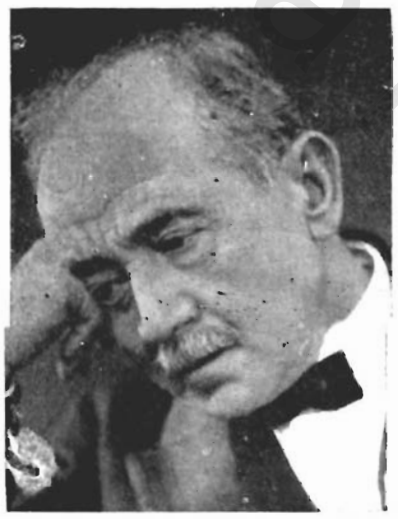

المغفور له أمير الشعراء شوقى بك

وبعد أنتهاء الحديث خاطبنى قائلا « ثق ياباشا أنك باق فى مكانك ، ولا تهتم بكل ماتسمع عنه من الدسائس التى تبيت فى الخفاء » !

وفى اليوم التالى توجهت لرئاسة النظار . فى عمل ما . . فلما علم الرئيس بحضورى . طلب أن يرانى . وأستدعانى لمقابلته، فلما دخلت عليه فى مكتبه بادرنى قائلا:

ـ من أخبر اللورد كتشنر بحكاية «فلان» وحكايتك؟

فأجبته بهدوء :

ـ أنا . . . وكل ما يتصل به من هذه الناحية . سيكون المبلغ له أنا . . . ! ؟ فأبتسم وقال :

ـ لا تخش شيئاً ما دام الامر كذلك . وكن واثقاً أنه لا يمكن لاحد أن يزعزعك من مكانك ، لأنه لا يمكن لأحد أن يملأ فراغك ! !

وبعد أيام صدر المرسوم بتشكيل الجمعة التشريعية . وكنت من أعضائها . وانتخبت رئيساً للجنة المالية فيها .

رتبة رومللى بلر بك

ومن المسائل المعروفة فى ذلك الوقت أنه لما توفى المرحوم بطرس غالى باشا أستقر رأى سمو الخديوى مع اللورد ، أن أخلف بطرس باشا فى منصب وزارة المالية . وفعلا بعث سموه بوفد من رجال السراى لتهنئتى وكان

على رأسه المرحومون الشيخ يوسف صاحب «المؤيد» — وأحمد شوقى بك أمير الشعراء . واسماعيل أباظه باشا. كما أرسل اللورد فى ذات الوقت احد موظفى «دار العمارة البريطانية» للغرض نفسه

حدث كل ذلك بغير مسعى منى . ولا علم لى به — فقدرت هذه الثقة العالية تقديراً عظيما ، قابلتها بالشكر والثناء ولكن ذلك لم يرق فى نظر رئيس النظار . فعمل جهد المستطاع لعدم نجاح الامر . . . إذ ادخل فى روع اللورد كتشنر باشى ، رجل الخديوى وصنيعته ، كما انهم عهد الخديوى باشى ، رجل الانجليز وصديق كتشنر ، ! ولكى يجعل الكلام هذا بعض الوجاهة قال إنى لا أنكر أنه أقدر اللائقين لهذا المنصب واعظمهم نفوذاً ، وأكثرهم جداراً وكفاية ، لولا هذه الميول — فكان ذلك موجباً لانقياد الجهتين لفكرته ، وصرف النظر عن اتمام هذا الوعد .

ولكن بالنظر إلى ارتباط الجهتين بالوعد . لاسيما بعد ارجاء التهنئة لى مقدماً فقد رؤى الانعام على برتبة « رومللى بلربك » — وهى أرفع رتبة فى الحكومة المصرية . وكانت لا تعطى إلا لكبار الوزراء !

كيف احتفلنا بأول عيد جلوس للخديوى (١)

لم يكن مألوفا فى مصر ، إلى عام ١٨٩٥ . ان يحتفل بعيد الجلوس تمجيداً لذكرى اليوم الذى تربع فيه على عرش البلاد . ولى الأمر فيها : أو « خديويها » — فكان ذلك اليوم العظيم : على كثرة ما يتسم به من المزايا ؛ وعلى وفرة ما ينفرد به من الصفات الرفيعة : يمر فى موكب الزمن ، كغيره من الأيام العادية . مع ما كان ، ولا يزال ، له من مقام سام فى الأمم الأخرى ومع ما يرتبط به من عظيم الذكريات لدى الشعوب المعتزة بقوميتها : لأنه يعتبر لديها بمثابة الصفحة الجديدة فى حياتها : التى تلهم أبناءها الهداية فى الرأى ، والسداد فى التقدم العمرانى ، والتوفيق فى الخطوات . . !

المغفور له عم الخديوى عباس حلمى الثانى يتحدث مع المؤلف (فلير باشا)

وكانت مصر حتى ذلك العهد ، تعتبر على الرغم من الاحتلال الانجليزى الذى كان يجثم على صدرها ولاية تركية . وكان الباب العالى فيها ، شبه ، هيمنة قوية ، لم تستطع أساليب المحتلين البريطانيين أن تستأصل جذورها ، أو تمحو روحها المتأصلة فى كل ناحية . . ذلك لأن العلاقات التاريخية القديمة كانت توثق روابط الاخاء والمودة بين المصريين واخوانهم الاتراك والفضل فى ذلك كله يعود إلى ما كان ، للخليفة ، فى الدولة العلية من منزلة رفيعة فى نفوس المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . . . !

وكانت مصر تجرى على سنة مشاركة الأتراك فى الاحتفال باعياد جلوس سلاطينها الخلفاء . أما أن تحتفل هى بذكرى اليوم الذى تقعد فيه عرشها الخالد سيد البلاد وولى أمرها . فلم يكن ذلك معروفا فيها . . !

عندئذ فكرت أن تعمر مصر على الاحتفال بعيد جلوس الخديوى . وعرضت هذا الرأى على صديق المغفور له

---

(١) نشر فى مجلة « الراى العام »

عبد القادر حلمى باشا — وكان أيامها وزيراً للداخلية . فاستصوبه واللفنا لجنة من بعض كبار الموظفين و لأعيان البارزين . تعمل على أقتباس هذه السنة الحميدة فى الاحتفال بعيد جلوس الخديوى المصرى على غرار ما تحتفل استانبول بعيد جلوس السلاطين الأتراك . . حتى يغدو هذا اليوم السعيد فى تاريخها . مهرجانا تتجلى فيه مظاهر ولاء الشعب بقائده الأعلى . وتتسابق فيه البلاد فى ميدان المبرات والخيرات . التى تقيم باغداقها على الفقراء والمحتاجين . البرهان على صدق تعلقها بشخصه الكريم . وعلى خالص رغبتها فى أن يصيب فيه كل فرد من الشعب قسطه من البهجة .

ولقد قر الرأى فى هذه اللجنة فى سنة ١٨٩٥ على أن تحيى عيد جلوس الخديوى بإقامة حفلة باهرة فى حديقة الأزبكية . فأقيمت فى كل ناحية منها معالم الزينات . كما رفعت الأعلام وأضيئت الأنوار فى الميادين العامة . ومصالح الحكومة والدور المجاورة لها . ودعيت جماهير الشعب للمشاركة فى مباهج العيد وأفراحه . وكانت فرق الموسيقى المتعددة فى كل مكان تصدح بنغماتها العذبة . — وفى الوقت نفسه أقيمت فى دار الأوبرا حفلات غنائية باهرة . تبارى فيها مشاهير أهل الفن من المغنيين والمطربين كما مثلت إحدى فرق التمثيل رواية لطيفة مناسبة للمقام !

سمو الأمير الجليل محمد على
(فى الثياب العسكرية)

وهكذا كان احتفال مصر بأول عيد للجلوس فيها منذ زهاء نصف قرن . فأذاعت فى أفراحه فضائل ولى الأمر فيها وترنمت الجماهير بأغانى ولائها الذى تنطوى عليه للجالس على عرش البلاد !

ولا غرو فقد كان ذلك اليوم من الايام المشهودة فى تاريخ مصر اشترك فى البهجة به الشعب بجميع طبقاته . وكان من ذلك العهد البعيد بشيراً بسرور الأمة العام . ومن يومها جرت البلاد على الاحتفال بأعياد الجلوس السعيد الى الآن . وسرت فى الامة مسرى الاعياد القومية العظيمة حتى استكملت فى عهد الفاروق الزاهر . أروع مظاهرها . بما يغمر البلاد من خيراتها ونفحاتها . بإشاعة البر لفقرائها المساكين . ومعاونة الضعفاء والبائسين تيمناً بذكرى جلوسه السعيد على عرش القلوب ! !

فضل سمو الأمير محمد على فى تأسيس جمعية الهلال الأحمر المصرى

وفى عهد سمو الخديوى عباس أنشئت طائفة من المؤسسات الخيرية العظيمة . الى جانب أعمال الاصلاحات الاجتماعية الجمة التى نهضت فى البلاد . وكان فى طليعتها « جمعية الهلال الاحمر » التى كان أصحاب الفضل الاول فى تاسيسها أمراء البيت المالك الكريم . وعلى راسهم حضرة صاحب السمو الملكى الامير الجليل « محمد على » ولى عهد المملكة المصرية . الذى سارع عند ما نشبت الحرب الطرابلسية . وخاضت تركيا غمارها الى جانب اخواننا سكان برقه وطرابلس الغرب ضد ايطاليا المعتدية . الى دعوة المصريين الى معاونة اخوانهم المجاهدين . وارسال البعوث الطبية . والمساعدات المادية اليهم .. وكان من جراء دعوته المباركة . أن انشئت لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث . جمعية الهلال الأحمر المصرى . التى لا ينكر أحد فضله المأثور عليها . ولا فضل اخوانه الآخرين من امراء البيت المالك الامجاد . الذين تبادلوا رئاستها كالمغفور له الأمير عمر طوسون . وصاحب السمو

الأمير الجليل يوسف كمال — اطال الله حياته الكريمة . وقد شرفتنى الجمعية بأختيارى وكيلا لها الى الآن .

وبهذه المناسبة يطيب لى فى هذا المجال ، أن اتناول بالحديث هذه الشخصية الساحرة الممثلة فى صاحب السمو الملكى الأمير محمد على ، لأبين للجماهير بعض نواحيها الفريدة ، ومواهبها النادرة ، وصفاتها الممتازة ، وما لها من أميال طبيعية فى خدمة البلاد ، اجل الخدمات التى ترفع شأنها ، وتعلى قدرها ... كى تكون خير انموذج ، لكل راغب فى الخير لبلاده ، والذكر الحميد ! فحياة سموه قصيدة عامرة بعظائم الأمور ، مفعمة بجميل الصفات ، والعظمة التى يجدر بطلاب المجد احتذاء طرائقها ، واستخدام اساليبها حتى ينالوا رضى الناس ومحبتهم أجمعين !

سمو الامير محمد على

إن مميزات سموه الغراء ، كالتيار الكهربائى الذى يرسل أشعته الى جميع العقول والقلوب والنفوس ، فتجتذبها اليها ، حتى خلقت لصاحبها النبيل ، وأمته الكريمة ، حياة مجيدة فوق الحياد ! حياة تزهو على تعاقب الأيام ، بالفخر والخلود ، وتجعل الأفئدة تبايعه بالولاء والحب ، حتى يلتقى أبد الدهر بازله !

ذلك لأن العظيم فى أمته ، انما يعتبر الحديث عنه عرضاً لما تزخر به حياته من جلائل الأعمال ، وحميد الفعال — وهذه وتلك ، هى أغزر مادة للأقلام ، ومهوى أطلاع المولعين بالبحث والتاريخ !

وسمو الأمير محمد على ولى العهد ، يجمع الى رقة الشمائل ، وداعة النفس ، مع ما فيها من عزة محببة الى الناس ، ورقة الطبع والتواضع مع مهابة ونزاهة عن كل مايشين ... وذكاء متوقدا ، وعلماً واسعاً محيطاً بالعالم ، وما حوى ، وادباً فياضاً ومعرفة شاملة بدقائق الأحوال ، تنطق بيقظته الدائمة فى انتهاز الفرص ، واستخدامها فى كل ما يعلى شأن بلاده ، ويدفع عن قومه المظنات والريب !

ومن هنا جاء ولع سموه بتقريب العلماء والأدباء اليه ، ورعايته لهم ، وتشجيعه للموهوبين من الناس ، ومؤازرته لذوى الكفايات ، ممن ترفعهم بنصائحه الثمينة معارفهم النيرة الى سامى المقامات ورفيع المناصب !

وابرز ما أشتهر به سموه ديمقراطيته الأصيلة ، وأخلاقه السمحة ، وتواضعه الجم ، الى جانب طائفة من المفاخر العظيمة التى تنبىء عن نضج ارائه السديدة ، وتجاربه الحكيمة حين يدلى فى أى مشكل عام بالفكر النير أو العلاج الموفق !

ولقد عكف سموه من زمان بعيد على الاسفار والأرتحال الى مختلف الاقطار ، دارساً لأحوال الناس فيها — وكتب رحلاته ، بأسفارها الطلية المملوءة باللطائف والمشاهدات الرائعة ، آية من الآيات التى تنطق بجماع ما ذكرناه وفصلناه !

هذا إلى جانب عناية سموه بكل ما من شأنه أصلاح أحوال الفلاحين — وهم عنوان البلد ورمزها — ورغبته فى العمل على إنهاضهم ، وترقية الصناعات المحلية وطبعها بالطابع القومى الرائع ! . . ولعل فى حرص سموه فى بناء قصره الجميل عند ضفة النيل — بمثيل الروضة على الطراز العربى الصميم ، مصداقا لهذه الرغبات !

ولا يمكن أن ينسى الناس مواقفه التاريخية العديدة فى العمل على تآلف القلوب ، وتوحيد الصفوف بين أبناء البلاد ، ولا جهوده فى سبيل اصلاح الأوقاف ، ولا أعماله الكثيرة فى البر ، فإن سموه على الرغم من تكتمه أمرها ، تواضعاً منه ، فى هذا المجال ، قدوة يضرب بها الأمثال :

وبهذه الصفات المجيدة ، يتحلى سمو الأمير محمد على ، وبهذه السياسة الرشيدة يعمل فى طليعة العاملين لكل ما من شأنه توفير أسباب الرفاهية لابناء الشعب ، واستكمال مجد مصر ، طبقاً لمبادىء مولانا الملك المحبوب فاروق الأول المعظم . . .

وكذلك أنشئت الجمعية الخيرية الإسلامية فى عهد سمو الخديوى عباس ، وكان الفضل لتأسيسها عائداً إلى جهود المرحوم مصطفى فهمى باشا ، أبان تقلده رئاسة الوزارة .

كما أنشئت أيضاً الجمعية الخيرية القبطية والمشغل البطرسى .

إنشاء المتحف القبطى

وانشىء أيضاً المتحف القبطى الذى أسسه المغفور له حسين فخرى باشا ، بالاشتراك مع غبطة البطريرك ، المتنيح ، الانبا كيرلس . وقد اختير المرحوم نخله بك الباراتى مديراً له ، ولا بأس من ايراد النبذة التالية عنه:

« بدأت فى الحقيقة فكرة جمع الآثار القبطية من مخطوطات وتحف وآثار حوالى منتصف القرن التاسع عشر الا أن روح الحياة لم تشيع فى هذه الفكرة السديدة إلا فى سنة ١٨٨٢ حيث بدأت تتخذ شكل مشروع تحت التنفيذ إذ وضعت الكنائس القبطية الأثرية تحت أشراف لجنة حفظ الآثار العربية . وساعد بعد ذلك على تنفيذها تبعية الآثار المصرية على اختلافها لوزارة الأشغال التى كان (ناظرها) فى ذلك العهد المرحوم حسين فخرى باشا . الذى كان مولعاً بالآثار . والذى أولى هذه المسألة — أى إنشاء متحف للآثار القبطية — عناية فائقة واهتماما عظيما

المغفور له فخرى باشا

« وكان عضد فخرى باشا — طيب الله ثراه — فى هذا الأمر الجليل المرحوم المستر هيرتس العالم الأثرى الفرنسى . الذى وضع تقريراً ضافيا رفعه لفخرى باشا ، وعرضه عليه فى اجتماع عقد فى ٤ يناير سنة ١٨٨٧ ، أثبت فيه أن الآثار القبطية مهملة فى أركان الكنائس المتهدمه وأن أمرها قد يؤول إلى الضياع وانعدام أثرها انعداما كليا ، إن لم تتدركها يد الحفظ والعناية والتنظيم « وبما أن مشروع وقاية الآثار القبطية من التخريب والضياع لا يتم إلا بانشاء متحف لها على غرار متحف الآثار العربية فقد طلب المستر هيرتس من فخرى باشا أن يخابر غبطة بطريرك الاقباط فى ذلك العهد (المتنيح الانبا كيرلس الخامس) لاجل الاتفاق معه على إنشاء متحف لها على نظام المتاحف الاثرية الاخرى فقبل غبطته هذا الاقتراح بكل ارتياح واختار جناحا من كنيسة المعلقة ليكون متحفا للآثار ، وانتخب لإدارته المرحوم نخله بك الباراتى الذى كان فى ذلك الوقت ناظرا للكنيسة المعلقة وأن يعهد الى المرحوم نخله بك الباراتى فى

اختيار جناح خاص لها فى بناء كنيسة المعلقة بمصر القديمة . وبعد ذلك تقابل نخرى باشا مع غبطة البطريرك السابق رحمه الله وتم الاتفاق بينهما على جمع هذه الآثار فى جناح خاص بالكنيسة المذكورة واوكل امر هذا المتحف الى نجله بك البارانى

« ومما تجب الاشارة اليه ان جلالة المغفور له الملك الراحل العظيم فؤاد الاول قد شمل المتحف القبطى بعين رعايته وغمره بنفحاته السنية ، وامر بوضعه تحت الرقابة الحكومية كالمتاحف الاخرى . وكان لمعالى حلمى عيسى باشا فى عهد توليته وزارة المعارف فى السنوات الماضية فضل النهوض به ، إذ احتفل بضمه الى الحكومة . واشار فى خطبة القاها فى ذلك اليوم الى فضل نخرى باشا فى تاسيسه . وظل دائم العمل على تحقيق رغبة الملك فؤاد السامية حتى غدا يضارع دار الآثار المصرية ، والعربية وسار فى طريق التقدم اشواطاً بعيدة

الاميرة نازلى هانم فاضل والسلطان عبد الحميد

ومن الحوادث التى حدثت فى زمن سموه ، أن « البرنسيس » نازلى هانم فاضل وهى الأميرة الوحيدة التى كان لها صالون تقابل فيه رجال السياسة والوزارة والأدباء وكبار القوم . وكانت ذكية جدا ومثقفة ثقافة عالية وملمة بالسياسة العامة فى العالم . وغيورة للغاية فى الحرص على مصالح مصر وتركيا بنوع خاص — أن هذه الأميرة ترجمت كتابا للمرحوم مصطفى فاضل باشا والدها ضد مظالم السلطان عبد الحميد وتصرفاته المخزية فى تركيا ، وطبعته فغضب لذلك السلطان وطلب من سمو الخديوى أن يسترضيها بكل ما لديه من الوسائل وبجميع ما فى ميسوره من المغريات مع جمع الكتاب وارساله لجلالته ففعل سمو الخديوى ما طلبه السلطان وكانت دائماً وأبداً تذم تصرفاته وتعيب عليه جميع اعماله . وأخيراً دعاها جلالته لاستانبول . فنصحها جميع أصحابها بعدم السفر — وانا منهم — خوفاً عليها فلم تسمع النصيحة وثبت المدعو وذهبت للاستانة . ولكنها احتاطت لذلك كل الاحتياطات فبمجرد

الأميرة نازلى فاضل

وصولها الآستانة . ذهبت مباشرة لدار السفير البريطانى ونزلت عليه ضيفة كريمة . وفى اليوم التالى لوصولها توجهت للسراى السلطانية وكان بصحبتها مندوب من قبل السفير . فبمجرد أن علم بذلك جلالة السلطان قابلها أحسن مقابلة . وأنعم عليها بكثير من الهدايا والعطايا وعادت معززة مكرمة إلى مصر . فتوجهت لزيارتها والسلام عليها ، فوجدت لهجتها قد تغيرت نحو السلطان ، وأصبح كل كلامها نحوه بالمديح وآيات التقدير بعد أن كان بالطعن والتشهير . فقلت لها : سبحان من يغير ولا يتغير ! ما هذه لهجة كلامك قبل توجهك للاستانة . فقالت : أجيبك عن سبب ذلك فى الحال ! ؟ .. وأمرت أحد توابعها أن يحضر صندوقا من حجرة نومها وقالت : (وقد فتحته أمامى وفيه ما يبهر الأبصار من جواهر كريمة ولآلىء ثمينة وأحجار من الماس وذهب خالص) : ياحبيبى هذا ما أوجب تبدل لهجتى نحو جلالة مولانا الخليفة ؟ فضحكت كثيراً . . .

ومن نوادرها الغريبة انه عرض عليها من قبل الوزارة أن تتزوج بأحد الوزراء المشهورين وكان المرحوم فخري باشا فرفضت وعرض عليها أن تتزوج بأحد الأمراء فرفضت أيضاً . وأخيراً قامت بسياحة إلى الخارج . وفي أثنائها عرجت على تونس فأعجبها شاب تونسي اسمه « بوحاجب » فتزوجت به في الحال . وهذا الشاب هو نجل قاضي المحكمة الشرعية بتونس . ثم عادت لمصر فقالت لي :

— ماذا يقولون يا باشا عن زواجي بالتونسي ؟ لا سيما بعد أن رفضت وزيراً وأميرا ! فقلت : يا برنسيسة يقولون عنك انك مجنونة ! فضحكت كثيراً وقالت : ما أعظم سروري لسماع ذلك ألا تعلم أن كل الناس مجنون.

— كما يقول الشاعر — وان ابي كان مجنوناً . فاندهشت لسرعة الخاطر وعظيم الذكاء اللذين اكتنفا بهما . . ؟!

وكان لها نوادر كثيرة من هذا القبيل . وكانت تحب ركوب الخيل كما كانت جميلة الطلعة . حلوة الحديث . لا يشبع أحد من مجلسها وتحب كبار القوم وأدباءهم وظرائف العلماء ، ورجال السياسة . محترمة لدى الجميع . وكان اللورد كرومر يعزها ويقدرها جدا ويحب زيارتها كثيرا .

السلاطين الذين تشرفت بمعرفتهم

وبهذه المناسبة أذكر أني تشرفت برؤية السلطان عبد الحميد والسلطان رشاد في هذا العهد وكانت صلتي بالسلطان رشاد متينة نظراً للمساعدات التي أدتها مصر لشقيقتها تركيا عن طريق جمعية الهلال الاحمر المصري في حرب طرابلس. وكنت أنا وكيلها ونائباً عن جمعية الهلال الاحمر في استانبول .

المغفور له السلطان رشاد

وقد كنت بحكم هذه المهمة دائم الاتصال بالسلطان رشاد . وقد حظيت بمقابلته مرات عديدة . ولقيت من عطف عظمته ما سهل لي المهمة المعهود الى القيام بها على أكمل الوجوه .

ولا يمكن ان ينكر أحد ما أدته جمعية الهلال المصري ، التي كانت تحت رئاسة سمو الأمير الجليل محمد علي في ذلك الوقت ، لمعاونة شقيقتها الكبرى تركيا في خلال الحرب البلقانية التي كانت مستعرة الاوار في هذه الفترة من الزمن .

رأي في المصاريف السرية

جرت العادة ، من قديم العهود ، أن ترصد في ميزانية الحكومة مبالغ غير منظورة ، أي « المصاريف السرية » والغرض الأصيل ، أو الأساسي من رصد هذا المبلغ ، هو انفاقها في كشف الحوادث الغامضة وخدمة أغراض الأمن العام . ولم يكن الوزراء يطلعون على هذه « المصاريف السرية » ما عدا الوزير المختص ، وهو وزير الداخلية

وقد كان الوزير في الزمن الماضي يستعمل كامل نفوذه ، بلا حساب وبغير رقيب ، في انفاق هذه الأموال وفق ما يريد . وحين كنت في الجمعية التشريعية ، رأيت مظاهر هذا الاسراف واضحة بكل جلاء ، إذ رأيت شخصاً أسمه « أرمولي بك » وكان يشغل وظيفة تشريفاتي برئاسة مجلس الوزراء ، ينال من هذه الأموال ٥٠ جنيهاً

علاوة على مرتبه كموظف فى الحكومة . فاقترحت بحكم وظيفتى كرئيس للجنة المالية . أن لا تنفق هذه المصاريف إلا باطلاع مجلس النظار . لأن هذه الأموال هى من عرق جبين أبناء الأمة . ولا يجوز أن تبدد شمالا ويميناً بغير حساب ؟ وأستندت فى هذا الطلب إلى أن الوزراء جميعا متضامنون . ولا يجوز أن يخفى عنهم مايصرف من هذه الأموال بالتحديد .

وقد جرت مناقشات طويلة فى هذا الرأى . وأرتاح أعضاء الجمعية التشريعية إلى ما قلته . ولكنهم رأوا أن يدخلوا فيه تعديلا بسيطا . يتناول الفرع لا الأصل . والمظهر دون الجوهر — إذ قرروا أن يعهد إلى المستشار المالى ، وكان وقتها هو السير بالمر مهمة مراقبة صرف هذه الأموال بالاشتراك مع وزير الداخلية .

ولقد ظل العمل بهذا النظام قائما إلى نهاية فيام عهد الجمعية التشريعية وبعد ذلك رجعت الحكومات إلى سالف عهدها فيما يتعلق بها — أى ، بالمصاريف السرية ، !!

زيارة الرئيس تيودور روزفلت لمصر

ولقد كان لى شرف الأتصال بالرئيس تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة الامريكية الأسبق ، عند زيارته لمصر . إذ رغب فى التعرف الى بعض عظماء الأقباط . حين زار دار البطريركية ، وتقابل مع غبطة البطريرك . وكانت لى معه مودة ظلت فترة من الزمن متينة الأواصر ، والصورة التى إلى يسار هذا الكلام ، تمثل الرئيس روزفلت وسكرتيره عند زيارته لى فى منزلى بحلوان . ويرى فيها المتفيح الانبا يوأنس الذى كان مطراناً للاسكندرية فى ذلك الوقت .

الرئيس المرحوم تيودور روزفلت ويجانبه المؤلف (فلبى باشا) وبطريرك الاقباط الاسبق المتنيح الانبا يوأنس

والخلاصـــــة

أن عهد سمو الخديوى المغفور له عباس حلمى الثانى كان من أزهى عصور مصر . التى بدأت فيها الفكرة الوطنية تتجلى فى الشعب المصرى . وانى اذكر بالحمد . أن اعظم الرتب والتياشين الرفيعة التى نلتها . انما كانت فى عهده . وأن أكثر المناصب الكبيرة التى توليتها إنما كانت فى زمنه .

عصر المغفور له الخديوى توفيق

صفاته العالية

إرتقى المغفور له الخديوى توفيق عرش الخديوية ، بعد تنازل والده العظيم اسماعيل . وكان فى صدر شبابه الناضر ، متحليا بخير الصفات ، وحميد الشمائل . فالتواضع والدعة ، والميل إلى البساطة ، ولين الجانب . كانت كلها متجسمة فيه ، وأبرز مميزاته . وكان ينأى بنفسه ما أمكن عن مظاهر العظمة ، والكبرياء . ولهذا أصبح قريبا إلى قلوب الشعب وإن كان ميله إلى الجراكسة والأتراك ملحوظا ، فان ميله إلى رعاياه من أبناء مصر ، لم يكن يقل عنه بحال . ولهذا تعلقت به الرعية لما طبع عليه من كريم الأخلاق ورقيق الطباع ، وجميل المناقب !

المغفور له سمو الخديوى توفيق

وكانت مقاليد الأحكام تلقى إلى واحد من الوزراء الثلاثة البارزين : رياض باشا ، وشريف باشا ، ونوبار باشا — كما كان الحال فى عهد والده — وكان لكل منهم من الصفات مايؤهله لنوال ثقة ولى الأمر . ولم تكن جهود الخديوى توفيق المبذولة للعمل لخير البلاد لتفتر ، الا تحت ضغط الحوادث الجسيمة التى حفلت بها أيام حكمه . فقد كان سموه غيوراً على مصلحة البلاد ، ساهراً على كل ما من شأنه أعلاء رفعتها ، واستكمال مابدأه والده المتجدد الهمة ، من أسباب العمل فى التقدم بها فى مدارج الرقى والمعالى . . وكانت ثقة الخديوى توفيق بوزرائه الثلاثة الذين ذكرناهم ، تضاعف عزائمهم للعمل النافع فى خدمة مصر ، من غير أن يعرف الكلل سبيله إليهم ، وكان سموه يركن اليهم فى حل العقد ، وتفريج المشكلات التى تنشأ . . بما يضمن حسن سير الأمور !

كيف نشأت الحركة العرابية !

وقد وقعت فى مستهل عهده بالحكم الحركة العرابية ، إذ كان المتبع إلى ذلك الوقت ان جميع الوظائف الكبرى تسند للأتراك والجراكسة ، من دون أهل البلاد ، الذين كانوا يتقلدون الوظائف الصغيرة الثانوية إلى رتبة « أميرلاى » . . وكان التفاوت فى المعاملة بين الفريقين ، داعيا إلى غضب الضباط والجنود الوطنيين — فطلبوا من الحكومة بزعامة « الأميرلاى عرابى بك » أن تعاملهم على قدم المساواة مثل زملائهم الآخرين . . واتفقت كلمتهم على العصيان ، قبل رفع شكواهم إلى سمو الخديوى ، ورياض باشا رئيس الحكومة — الذى قابل الوفد الذى أنابوه عنهم فى رفع مظلمتهم باللطف ووعدهم بالنظر فى الصدر ، مهلا أياهم أياما ثلاثة لبحث شكواهم — ولكن الدسائس التى طرأت أفسدت كل تدبير لعلاج الحالة مما ترتب عليه قيام الحركة العرابية ! !

وتفصيل ذلك بايجاز ان موقف رفقى باشا ناظر الجهادية ومعاملته لعرابى وصحبه بالقسوة ، كان سبباً فى اندلاع الفتنة — مما كان من جرائه فى النهاية ، تفضل سمو الخديوى باجابة طلباتهم ، ومنها تشكيل مجلس النواب برئاسة المرحوم سلطان باشا وتأليف نظارة شريف باشا التى لم تدم طويلا ، كما هو معروف لدى الجميع .

ولا شك أن هذه الحركة كانت أول حركة وطنية صحيحة فى مصر فى خير البلاد فى مبدأ الأمر ايقظت الوعى القومى فيها بعد ركوده الطويل واستنامته زمنا بعيدا .

وبعد ذلك تألفت نظارة برياسة عرابى باشا ولكن المغالاة فى الامور كانت ابرز سياستها إذ بدأت المطامع الشخصية تداخل قلوب اعضائها واخذت المنافسات بينهم تعمل عملها فى تفريقهم وابعادهم عن أهدافهم الوطنية . ومن هنا اخذت هذه الحركة القومية تنقلب الى فتنة ومنازعات داخلية جرت على البلاد الاهوال والوبال ؟ ..

موقف وطنى لسلطان باشا

فى ذات ليلة توجه عرابى باشا ومعه بعض كبار الضباط الى منزل سلطان باشا رئيس مجلس النواب — وطلبوا منه عقد المجلس فى الحال — وكانت دورة الانعقاد قد انتهت — وبحسب قانونه لا يجوز عقده الا بمرسوم خديوى . فلما استفسر عن الاسباب الاستثنائية التى تستدعى عقده حتى اذا رأى وجاهتها استصدر المرسوم على اساسها .. فانبرى له أحد الضباط وكان برتبة (بكباشى) يدعى عبيد افندى .. واخرج سيفه من غمده وقال : « وحياة سيفى هذا وشرفه أن تأخر عقد المجلس فى هذه الليلة لأقطعن به رقاب الحاضرين » ! .. فهزأ سلطان باشا بهذا القول وابتسم موجها حديثه لعرابى باشا : « أيمثل هذا الاحمق ياعرابى تحكم مصر » ؟ .. وأظهر غضبه الشديد . فلم يسع عرابى إلا أن يعتذر له على ما بدر من زميله وأمر بطرده من المجلس

المغفور له سلطان باشا

ثم انفرد سلطان باشا بعرابى وقال له مستفسرا : وماذا تقصدون من عقد المجلس » ؟ .. فأجابه عرابى اننا نريد استصدار قرار بخلع الخديوى عن العرش .

وهنا قال الباشا : « ولكن هل الخديوى عين بأمر المجلس أو بقرار من الأمة المصرية » ؟ .. فرد العرابى قائلا « ان هذا لا يهمنا بل الاهم هو استصدار قرار من الأمة ونوابها لعدم رضائهم عنه وتقريرهم خلعه على العرش » . فقال الباشا : ولكن هب ياعرابى اننا اتفقنا على ذلك فهل اتفقتم انتم فيما بينكم عمن سيكون خلفاً للخديوى » ؟ فصمت عرابى والوفد الذى معه قليلا ولم يجيبوا بكلمة .. وهنا استطرد سلطان باشا قائلا نصيحتى لكم أن تجتمعوا أولا بمنازلكم على حدة ، ثم تجمعوا قواد الكبار وتتداولوا فيما بينكم ثم تقررون من تريدون أن يكون خديويا على مصر وحينذلك يجتمع المجلس ويصدر قرارا بمطالبكم . فيكون قرار الخلع مقترنا بقرار تعيين الخلف . ويكون الخديوى الجديد مهيئا للجلوس على العرش . وكانت هذه حيلة بارعة من سلطان باشا استصوبها عرابى باشا لاعتقاده بأن ليس بين زملائه من يستطيع تبوأ العرش سواه . على ان سلطان باشا من ناحيته كان مؤمنا بعدم نجاحهم فى الأمر نظراً للتنافس بين الضباط وبذلك خلص سلطان باشا من هذا المأزق بتلك الحيلة البارعة !! ..

ولقد صحت ظنون سلطان باشا إذ ما كاد عرابى يجتمع بزملائه للمناقشة فى الامر حتى قال لهم : « من يكون أولى منى بهذا المنصب وانا قائد الحركة » ؟.. فنرى له البارودى باشا وقال : «وهل انت افضل منى وانا من سلالة سلاطين مصر القدماء » . ؟ فقال طلبه باشا أحد كبار الضباط موجها اليهما كلامه : « جميل !!.. انت من سلالة سلاطين !. وهو قائد الحركة !. ونحن ضعنا بينكما » ! فقيل له : اذن وما العمل ؟.. قال : « ان المملكة المصرية مقسمة الى اثنى عشر مديرية فيجب ان يكون كل فرد منا خديويا على مديرية » فضحك الحاضرون سخرية منه واتفقوا على بقاء الحالة كما هى وكفى المؤمنين القتال .

المغفور له سامى البارودى باشا

الرجوع إلى الحق فضيلة

وبعد ذلك قصد عرابى إلى سلطان باشا وشكره على بعد نظره قائلا له أنه لو تم اصدار القرار الخاص بذلك الأمر وأردنا أن نختار من بيننا رئيساً منا لذبحنا بعضنا بعضاً قبل أن نوفق الى تحقيق هذا الغرض ثم شكره (وقبل يده علامة الامتنان) وأثنى على نصيحته لهم . فسر سلطان باشا كثيرا لنجاح حيلته . على أن ذلك لم يمنع عرابى وزملاؤه من استئثارهم بكل سلطة فعمت الفوضى فى جميع المصالح والأعمال مما استحالت معه هذه الحركة الوطنية الى منازعات شخصية .

الاحتلال الانجليزى

ولما رأى سمو الخديوى توفيق ما آلت اليه الأحوال من السوء والفساد والاضطراب خشى العواقب وسافر إلى الاسكندرية وهنا أعلن العرابيون التمرد واستئثارهم بالأمر وتهجموا على المقامات الرفيعة بالبلاد على أثر تشكيل عرابى وزارة جديدة لتصريف شؤون البلاد مما جعل الثورة تمتد الى كل ناحية .

واستمر عرابى باشا يدير مقاليد الأحكام كأنه حاكم مطلق الحرية إلى أن تدخلت إنجلترا لقمع هذه الفتنة بالقوة وأعادة النظام والسلام فيها . وكانت قد عرضت على فرنسا الاشتراك معها فى ذلك بالنظر لاشتراك المصالح بينهما فى مصر . فتنحت فرنسا وانفردت انجلترا فى احتلال البلاد بجيوشها على أثر موقعة التل الكبير التى انهزمت فيها الجيوش العرابية أمام الجيش الانجليزى . وقبض على زعماء هذه الحركة وحكم عليهم أولا بالاعدام ثم عدل الحكم بالنفى المؤبد الى سيلان على نحو ما تضمنته كتب التاريخ

وبذلك أخمدت الثورة العرابيه . وقضى عليها بعد أن انقلبت الى فتنة عاثت الفساد فى البلاد . ولما كان الجناب الخديوى قد عزف فى تلك الأحوال عن سكنى العاصمة الى أن تستتب فيها الأمور . وبقى فى الاسكندرية ، فقد اختير سلطان باشا «قائمقام» له يقيم فيها لاصلاح الأحوال . مع قيامه بأعمال الحكومة . . وبالفعل تألفت نظارة شريف باشا ، وتولى فيها رياض باشا نظارة الداخلية . وكان ذلك إيذانا باستتاب الأمن وتنظيم الأحوال . فعاد سمو الخديوى إلى عاصمة ملكه معززا مكرما ، وشكر لسلطان باشا ما أداه للبلاد من جلائل الأعمال !

وإنى أذكر انه فى أثناء قيام سلطان باشا بتنظيم الأحوال كانت ترد إليه برقيات كثيرة من مختلف الجهات عن تمرد بعض الناس ووجوب محاكمتهم . فكان يأمر بسجنهم تحت التحقيق . وفى ذات يوم حين كنا على مائدة الطعام ظهراً وردت برقية من الفيوم تتضمن عصيان عمد المديرية فاصدر على الفور أمره بسجنهم تحت التحقيق. فقلت له وكنت أصغر الحاضرين سنا : لماذا تأمر بسجن هذا وذاك اسجن أهل القطر كلهم فقد كانوا جميعاً مساهمين فى الثورة : فمنهم من كان يخشى سطوة الجيش، فأضطر أن يظاهره . ومنهم من كان يعتقد أنها حرب وطنية للدفاع عن الوطن ! ! فليس هناك تفاضل بين واحد وآخر . . . فاما أن يشمل العفو جميع المصريين ، وكلهم كانوا أنصاراً للثورة بالحق وبالباطل ويعاقبوا جزاء ذلك . . وأما أن لا نهتم بما يقال عمن أنغمروا فيها . . ! ؟

المرحوم عرابى باشا

فقال سعادته وهو يبتسم :

— والله يابنى انك أعقلنا جميعاً ولو أنك أصغرنا سنا ! . . .

ثم شكرنى على ذلك ومن يومها لم يستمع لشكوى . . .

اشراف الانجليز على الشؤون العامة

وهنا بدأ الاحتلال الانجليزى فى مصر . يستفتح عهده : بإشراف انجلترا على الشؤون العامة — فوضع نظام مجلس شورى القوانين الذى عمله المسيو « دوفرين » باشتراك شريف باشا معه . وأختير اللورد كرومر ليكون ممثلا لانجلترا . ومهما قيل فى الاحتلال الانجليزى فلا يمكن أن ينكر واحد الخدمات الجزيلة التى أداها للبلاد المعتمد البريطانى . من دفاعه عن حقوق الضعفاء ازاء تحكم الاقوياء . ومن عمله على تنفيذ الاصلاحات التى يكون من ورائها الخير العام لطبقات الشعب فضلا عن اصلاح الرى . وربط ميزانية سنوية للحكومة . والزام الحكومة بصرف مرتبات الموظفين كل شهر بعد أن كان يصرف منها جانب فى كل ستة شهور . والاهتمام بالاقتصاد . واذكر أنه فى سنة ما أصيبت زراعة القطن « بالدودة » فأمر بتنقيتها . وكان ذلك أول مرة تم فيها هذا الأمر

وكانت للخديوى توفيق — طيب الله ثراه — حسنات كثيرة : منها أنه كان وديع الأخلاق . لا يميل للأذى . ويعيش فى بساطة تامة بعيداً عن المطامع . . وقد عينت فى عهده مراقبا للاموال الغير مقررة . فى نظارة المالية . ومديراً عاماً للدخوليات — وأتصلت به كثيراً . فكنت اجده مثال الحاكم العادل . الذى يحترم انظمة الحكومة وقوانينها . كأنه فرد من أبناء البلاد .

وكانت عادة الزواج بالجوارى البيض شائعة فى زمنه شيوعاً تاماً . وكان من حظ من يتزوجهن الرعاية والالتفات السامى . . إذ كان يصيب كل فرد منهم عزبة ٥٠٠ فدان . خلاف جهازها . وعربة لركوبها . ولكن الاحتلال الانجليزى سرعان ما قضى على هذه العادات ! !

عهد المستشارين الاجانب !

وبعد الاحتلال الانجليزى صبح يوجد فى كل نظارة مستشار منهم ، للأشراف على سير الأحوال — وكان المستشار المالى على وجه التحديد ، معدوداً فى النفوذ والسلطة ، الرجل الثانى بعد العميد البريطانى .. وكان لنظار مصر العظام معهم مواقف مشهودة ، فى بعض المسائل تدل على ما كانوا يمتازون به من الأنفة ، والعزة الوطنية ، والكرامة الانسانية

أملابس صيد ؟

حدث ذات يوم أن كان رياض باشا بنظارة المالية ، فى غرفته ، فدخل عليه المستشار المالى ، وكان يلبس ملابس بيضاء ، وحزاماً أحمر ، فلم يرض دولته هذا المنظر لموظف مصرى ... فنظر إليه فى شىء من الدهشة وسأله : « هل جنابك قادم من الصيد ؟ » . فأجابه : « لماذا يا دولة الباشا » ؟ فأشار إلى ملابسه وقال : « لأن هذه الملابس ليست ملابس مصالح ؟ بل هى أعدت للصيد » ! فخجل المستشار وفهم قصده .. وفى الحال عاد إلى منزله ، وغير ملابسه ، ووضع طربوشا على رأسه ، ورجع إلى الديوان واستأذن فى الدخول على رياض باشا .. الذى ما كاد يراه حتى ضحك فى وجهه وقال : « نعم ا .. هذه هى ملابس النظارة يا جناب المستشار !! »

لا يفرط فى حقه !

حدث مرة أن دخل السير غورست عند ما كان مراقباً للأموال المقررة بالمالية على رياض باشا لعرض بعض الاوراق .. وكان من ضمنها عريضة وردت إليه بالتظلم فى أمر ، فقال : « لقد وردت لى هذه العريضة ، فأشرت عليها بكذا وكذا — ولكن قبل أن أرسل الاوراق إلى جهة اختصاصها أردت أن أعرضها عليكم . لارى هل تتفق فى الرأى .. فقال له رياض باشا : « اعطنى العريضة » ثم أخذها ومزقها أربا أربا ... ووجه اليه كلامه قائلا : « أسمع . لا وجه لتقديم النظلمات إلا للوزير فقط .. والا فهل عينت انت وزيراً آخر للبت فى هذه الأمور » ! وهنا سكت غورست مع ما كان معروفاً عنه من الأنفة والكبرياء ، وغنم من السلامة بالصمت ، وخرج بالصمت عن لا .. ونعم !

وبعد ذلك أصدر رياض باشا منشوراً ، بأن كل الشكاوى لا ترفع إلا للوزير مباشرة ، دون سواه ، وإلا لن ينظر إليها ...

الاعتداد بالنفس !

واذكر من مواقفه مع النظار أنفسهم ، ما يمثل مواقفه مع الانجليز ، فى الاعتداد بنفسه ، من ذلك موقفه مع اللورد كرومر فى تعيين المستر «سكوت» مستشاراً للحقانية . وما كان له مع الخديوى ، مما نمر عليه مر الكرام .. ثم موقفه مع المرحوم نخرى باشا حين أصدر منشوراً موقعاً بامضائه بناء على تعليقات صدرت إليه من المستشار الانجليزى المذكور ، فانه بمجرد اطلاعه عليه دعاه اليه وسأله : «هل كنتم فى غيبوبة ساعة أصدرتم هذا المنشور ؟» أراد نخرى باشا الاعتذار عنه . والتخلص من تبعته ... لم يقبل اعتذاره ، وخيره بأن يغيره بآخر (أعطاه

صورته) أو الاستقالة . وأمهله ست ساعات للتفكير فى الأمر ... فلما عرض فخرى باشا الأمر على « سكوت » فضل هذا تغييره ، حلا للمشكلة ، وتجنبا لغضب رياض باشا ... وكان الله بالسر عليما ! !

بينه وبين تجران باشا

وحدث مرة من نوادره اللطيفة أن دخل عليه المرحوم تجران باشا ناظر الخارجية ، وكان يحمل فى يده عصاه فاستدعى رياض باشا الحاجب الواقف بالباب . وقال له : «سعادة الباشا نسى أن يترك عصاه عندك وقت دخوله هنا فخذها واحفظها أمانة ، وسلمها له ساعة الانصراف » ! فخجل تجران باشا . وسلم العصا للحاجب . وهو لا ينبت ببنت شفة ! !

شدته حتى مع خاصته !

ووقع لى معه أنا أيضا حادث طريف ، إذ دخلت عليه مرة لعرض مسألة هامة ـ وجلست من تلقاء نفسى . قبل أن يأذن لى بالجلوس . فما كان منه إلا أن غضب وصاح منفعلا وفى حالة عصبية ولهجة حادة : « ماذا تريد ؟ ؟ » فأدركت الأمر لفورى ، وفى الحال نهضت واقفا . . وقلت : « عندى مسألة هامة أريد عرضها على دولتكم » فأجابنى : « ليس لدى وقت الآن ، فاذهب إلى أن أدعوك » !

وبعد برهة من الزمن استدعانى . وتذكر تلك المعاملة القاسية لى فطيب خاطرى وقال لى : أننى إذا عاملتك هكذا ، فلأنك عندى بمنزلة ولدى » ! وكان هذا القول منه ترضية كافية أوجبت ارتياحى . وانستى مافات . .

حبه للعدل وانصافه للمظلوم !

وكانت عدالة رياض باشا . وميله لمعاملة الناس بالمساواة ، أبرز صفاته . واذكر أنا شخصياً حادث يتجلى فيه هذا الخلق الكريم ، بأجلى بيان ، حين راجعت حكماً أصدره نجله « محمود رياض باشا » عندما كان مديرا لأسيوط وكان ضمن اختصاص عملى مراجعة جميع الأحكام التأديبية ، فوجدت به ظلما بيناً ، اضطررت معه ابراء لذمتى أن أرجع فيه إلى دولة رياض باشا وقلت له — حيث كنت المكلف بمراجعة أحكام مجالس التأديب :

— لما أعلمه من عدلك المشهور ، أتجاسر بالشكوى من الحكم الظالم الذى أصدره نجلكم محمود باشا : حيث أصدر حكماً جائراً ضد موظف صغير لم تسمح ظروفه بالمثول بين يديكم . والتظلم منه إليكم : وكانت نتيجة الحكم عليه بالرفت والحرمان من المعاش ، وأنا أعلم أنكم لاترضون أن تضعوا اسمكم الكريم على مثل هذا الحكم !

فلما سمع رياض باشا ذلك . سر له وارتاح لصراحتى ، وكتب بخط يده بالغاء الحكم موبخاً نجله على الخطأ الذى اقترفه ، واعادة النظر فى الدعوى من جديد ، انصافا للحقيقة ! !

مجالس استئنافية للتأديب ؟

وأنتهزت هذه الفرصة التى سنحت لرياض باشا ، لكى يتبين خطأ نجله فى أحد الأحكام ، وقلت له : « طالما أن زمام الأمور بين يديكم ، فلا خوف على أحد من ظلم يصيبه . ولكن هل يمكن ضمان ذلك مع غيركم من الحاكمين ! ؟ » فقال لى باسماً . . . « وماذ تريد من قول هذا » ؟ فأجبت دولته : « إنى أقترح أن يكون لمجالس

التأديب بالفروع ، مجالس استئناف لمراجعة الأحكام . لأن ذلك خير ضمان لعدالة الأحكام » ! فأستصوب دولته اقتراحي . وعمل على تنفيذه . واقترحت أيضا أن تتبع الدائرة السنية أنظمة الحكومة ، لأن موظفيها يكابدون العناء . وتنصب عليهم المظالم بسبب صلف رئيسها فريد باشا وتعنته — لأنه لامعنى لأن تكون منفصلة عن الحكومة . مع أن معاشات موظفيها تصرف من الخزانة العامة . وفعلا أمر دولته بتحقيق هذه الفكرة ، على أن يكون استئناف مجلس تأديبها تابعا لنظارة المالية .

ولكن هذين الأمرين — على الرغم مما أفادا به الموظفين من خير عميم ، قد أثارا سخط المديرين ، وعلى الأخص فريد باشا . الذى وجد أنه قد أصبح مقيداً بالتزامات لاعهد له بها ، لأنها تحد من نفوذه وسلطته التى لم يكن لها حد . . . فحضر إلى ديوان النظارة وقابلنى وأطلعنى على ذلك . . فأشرت عليه — ولكن فى تخابث — أن يقابل رياض باشا . ويعرض عليه الأمر . . . فما كاد فريد باشا يفاتحه فى ذلك ، ويعلن إليه ألمه . حتى غضب عليه وسخط ، وأمره بالاستقالة إن كان لايرضيه الخضوع للأوامر الحكومية . . . ولولا وساطة المرحوم « محمود باشا بوسغلى » — صهر رياض باشا ، وطلبه أن يغضى عما عرضه فريد باشا ، لخرج فريد باشا من خدمة الحكومة . . وقد أقر أيضاً بالخضوع لكل التعليمات ، متعهداً بقبوله المحاكمة إن وقع على موظف منه ظلم أو جور!

بينى وبين غورست

وممن تولوا نظارة المالية غير رياض باشا ، المرحوم عبد الرحمن رشدى باشا وكان رجلا غزير العلم ، واسع الفكر ، ذا شخصية مهيبة ، لدى الموظفين — مصريين وانجليز على السواء — وكان ملماً المماماً كاملا بطائفة من اللغات الأجنبية . ومقتدراً فى فن الحسابات . . واذكر يوماً ان جاءه جناب « السير غورست » — وكان اذ ذاك مراقباً عاماً للأموال المقررة — وقدم اليه خطاباً لتوقيعه ، فأستدعانى رشدى باشا وطلب الىّ تعديله بالطريقة التى تلائم ، كما يروق لى ، ففعلت . . . وبعد أن تم ذلك وقع الخطاب . . فاوجب ذلك غضب السير غورست ، فحضر الى مكتبى عاتباً على تدخلى فى عمل خاص به . . فلما ابديت له ان ما عملته هو تنفيذ أمر الوزير الذى لم يكن لى مندوحة عن طاعته . هدأت ثائرته ، وسكت . . .

وكلاء الوزارات الانجليز . .

اما اشهر وكلاء الوزارات الانجليز الذين كانوا على عهدى بوظائف الحكومة . فهم : بلوم ، واللورد ملنر ، ودوكنس ، ومتشل أنس ، وبالمر ، وغورست .

وانى أشير اشارات عابرة ، الى صفات بعضهم ، والى نوادرهم ، ليتبين منها حقيقة الأحوال فى هذه الأوقات ، كل راغب فى الوقوف على هذه الفترة من تاريخ مصر ، ولا سيما أنها تعطى صورة دقيقة لأنظمة الحكم فى البلاد .

فالمستر بالمر كان رجلا نشيطاً للغاية ، يحرص على اداء واجبه . حسن التصرف فى الأمور ، سريع الفهم للأشياء . ومن هنا كانت له شخصية مرهوبة . وكان محباً للحق . ميالا للانصاف — ولو تقاضى امامه انجليزى ومصرى — فكان الحق هو الذى يقف فى صفه . بغير أى اعتبار آخر . . ولكنه كان ككل مستشار انجليزى ، « ممسكا » للغاية فى الميزانية !

حدث مرة أن كان هناك موظف انجليزى يدعى « هوكر » يعمل فى إحدى الوظائف التابعة للمصلحة التى كنت أديرها — فتوجه إلى القصر الخديوى فى يوم التشريفات ، وبدل أن يقف فى صف موظفى الفروع ، الذى هو على غرارهم . فقد تجاسر بسماجة لا تعرف حدوداً ، ووقف فى صف موظفى العموم ، أى النظارة ، وقال لى مع أنى رئيسه: « لا يصح أن تدخل قبلى ، وانت مصرى ، وأنا انجليزى » ! . . فقلت له : « يظهر ياخواجه أنك تجهل الصف الذى يجب أن تقف فيه » ! ثم ناديت المرحوم خيرى بك التشريفاتى وقلت له : « قل لهذا الخواجه أين يكون محله » ! . وهنا قال له خيرى بك يامستر هوكر ليس هنا مكانك .. تعال معى وأنا ارشدك إليه » ! فأستشاط هوكر غضباً . وأعتبر ذلك اهانة له ، وطلب من الحاضرين أن يكونوا شهوداً . . وبعد التشريفات . عدنا للوزارة فسبقنى وقدم شكواه لوكيل المالية السير غورست ، فلما استدعانى . وكنت إذ ذاك متهيجاً لما حدث ، وعقدت النية على أن لا أتساهل فى شىء ولو اقتضى الأمر أن اعتزل منصبى فى الحكومة .. فلما دخلت على السير غورست بادرنى قائلا فى لطف : « لماذا ياقلينى بك اهنت اليوم المستر هوكر فى التشريفات » ؟ فقلت له : « هذا كذب محض » ! فقال : « هذا ما قاله لى شخصياً » ! . . وأشار إليه ، وكان بجانبه . . فأصررت على أن هذا كذب . . فقال لى : نعم . . نعم . . . قص على أنت ما حدث . . !! فرويت عليه كيف أن هوكر اخترق الصفوف ؛ وأقبل نحوى يريد أن يسبقنى بحجة انه انجليزى وأنا مصرى ، فلا يجب أن اتقدمه ، مخالفاً بذلك النظام ، إلى آخر ماحدث من استدعائى أحد رجال التشريفات . . . وهنا قال لى مغرضاً — والغرض مرض ! — « ولكن هل نسيت يا قلينى بك أن مرتبه أكبر من مرتبك ؟؟ » فضحكت وقلت له : « جميل ! ولكن هل تحاكمنى على ذنب انت اقترفته فى حقى ؟ . . ومن قال أن يكون مرتب الرئيس أقل من مرتب المرؤوس غيركم أنتم » ! ؟

وهنا استدرك قائلا : « انت اليوم عصبى المزاج ، فلنبق المسألة ليوم آخر ! . . » فقلت : « كل يوم تحدثنى فى هذا الأمر أنا هكذا . فمن الخير أن تفصل فى الأمر الآن » ! .

فأحال الموضوع على المستر بالمر ، الذى غضب غضباً شديداً عندما وقف على تفصيله ، وأمر هوكر فى الحال بأن يقدم اعتذاره إلى منبها إياه بأن هذا مما يوجب الخلل فى الأعمال . . . وفعلا حضر إلى مكتوف اليدين وقدم اعتذاره بكل تواضع ، إلى حد أنى دهشت لهذا التبدل الفجائى . والفضل فى ذلك يعود إلى عدالة بالمر وانصافه .

انشاء ساحلى روض الفرج وأثر النيل

وقد كان « لبالمر » فضل معاونتى على تنفيذ مشروع انشاء ميناء بالقاهرة تشبه ميناء البصل بالاسكندرية ، للتجارة ، وأخترت لها « روض الفرج » مكاناً ، وقد افتتحناها بحضور الجناب الخديوى واللورد كرومر ، وسائر ممثلى الدول الأجنبية ، كما أنشأنا ايضاً ساحل اثر النبى على نظامه ، وجعلناه لتجارة ادوات البناء .

صفات غورست المحببة

وأما السير غورست فكانت له معى نوادر كثيرة ، سواء حين كان زميلى فى المالية حيث كان مراقبا للأموال المقررة أو وهو مستشارها . . فقد كان ذا ذكاء حاد . شريف النفس ولكنه كان رقيق المزاج ، فكان يميل لركوب الجياد ، وسباق الخيل ، ولعب التنس ، وملاطفة الجنس اللطيف — وانا على شاكلته فى هذا الأمر ، ولا فخر ! —

ولكنه كان ملولا ، سرعان ما ينفر من العمل ، لاعتلال صحته . ومع ذلك ادى لمصر خدمات جزيلة ، لا ينكرها عليه أحد ...

الغاء ضريبة الدخوليات

اذكر مرة انه استدعانى وهو مستشار للمالية ، وقال لى : « أريد أن اعمل عملا يرضى أهل البلاد ، ويكسبنى محبتهم ، فاذا تقترح علىّ : فقلت له : « نعمت الفكرة ! وحبذا الداعى عليها ، والحافز اليها » !

ثم تقدمت اليه بأقتراح الغاء ضريبة الدخوليات التى كان يئن منها الناس انيناً متواصلا ، فى جميع انحاء البلاد . والغاء عوائد « الاهوسة » المقامة على الكبارى . فانه ليس هناك ما هو اثقل على النفس منها ! !

وهنا نظر الىّ مندهشاً وقال : « انى اقرك على رأيك ، ولكن الذى يثير العجب ، أن هذه الضرائب هى التى تمول المصالح التى تديرها ، ومعنى الغائها الغاء لوظيفتك ! ؟ . انى لا افهم لذلك معنى » ! فقلت له باسماً : « ان هذا الخير الذى تعمله لبلادى ، سوف يعمنى كمواطن ، ويعم اهلى وعشيرتى ، وانا لا ابالى بنفع شخصى من أجل بلادى ، فالوظيفة تقليد ، لا تخليد ، وهى لى اليوم ، وغداً ليست لى » !

فسر الرجل من هذا الحديث ، وفعلا حقق هذا الاقتراح ، الذى فرح له ابناء البلاد .

بلوم باشـــا

ومن الوكلاء الاجانب كذلك نذكر المرحوم بلوم باشا — وكان اسرائيليا من أهل النمسا — ويندر من كان له نشاطه ، وحبه للعمل . ويعتبر فى كرم الأخلاق « نسيج وحده » . يؤثر المعروف ، والميل الى الخير .

من تداخل فيما لا يعنيه ؟

وكان فى عهده يوجد موظف يسمى « أسمعلوم بك » — وكان يتفرد بسماجة عجيبة ، وله اطوار غريبة . وكانت الوظيفة التى يشغلها هى وظيفة مفتش بالمالية ، فى عهد بلوم باشا ..

حدث ذات يوم ان كنت بمكتبى ، فاذا بجاويش يدخل على أحد الموظفين الذى يعملون فى ادارتى ، وقال له : « تفضل كلم ... إن البك يدعوك لأمر هام » ! فوضع الاوراق ، وهم بتلبية الدعوة ، فلما علمت بذلك دهشت ودعوته وسألته : « الى اين أنت ذاهب ؟ » فاجابنى : « ان البك يطلبنى » ! فقلت : « أى بك تعنى ؟ » أجاب : « اسمعلوم بك » ! قلت : « وهل هو رئيسك ، وهل تعمل تحت ادارته » ؟ ثم أمرته ان لايذهب اليه ، والا فسوف ارفته من العمل ، ودعوت الجاويش ونبهت عليه بان لا يعود ، والا فسوف يطرد ...

ثم توجهت إلى بلوم باشا ، وشرحت له ما يترتب على ذلك العمل الذى تعدى فيه أسمعلوم دائرة اختصاصه من فوضى . . فطيب خاطرى ، وهنا أحضره أمامه وآخذه على تصرفه . وانذره بأنه فى حالة العودة إلى ذلك ، فسوف يعرض أمره على رياض باشا ، ولن ينجيه أحد من عقابه . . فخاف أسمعلوم بك ، وعمل على ارضائى ، وكف عن تصرفاته الخاطئة . . !

اللورد ملنر ومتشل انس

ومن هؤلاء الوكلاء الانجليز اللورد ملنر ، الذى عين فيما بعد حاكما على الترنسفال . فقد كان رجلا كريم الأخلاق ، واسع المدارك ، عالى الهمة ، كبير النفس مع استحياء. وهذه الصفات الجميلة ، كان يقابلها ما هو نقيضها فى شخص خليفته ، متشل انس ، الذى جبل بطبعه . ومنذ اليوم الذى ولى فيه وكالة المالية على الأذى والشر . والحق يذكر أن الموظفين الانجليز كان فيهم العظيم ، وكان فيهم السخيف .. وكان كل منهم ينفرد بصفاته التى تقربه إلى القلوب ، أو تنفر منه الناس ، ونحن إذا ذكرنا سوء طباع ، متشل انس ، فإننا نجد مثلا من سبقه وهو « اللورد ملنر » ومن جاء بعده مثل المستر « دوكنس » كان له من الصفات الطيبة ما يمحو سيئات المسيء منهم ، وانى فيما ذكرته سواء ما أتصل فيه بنفسى ، انما أقرر الحقيقة ، بغير أى زيادة أو نقصان ، لأنى اؤدى للتاريخ ما فى عنق من أمانه مقدسة ! !

المصالح التى كنت أديرها

والمصالح التى كنت أديرها هى مصالح الدخوليات فى جميع مدن القطر المصرى ، ومصايد الأسماك سواء فى الشواطىء المالحة أو الحلوة ، والملاحة بالنيل ، ومصالح الملح والنطرون ، والضربخانة ، أى كل ما يتعلق بصك النقود الفضية ودمغ المصوغات .

وكان يدخل ضمن إدارتى أيضاً ، الادارة العربية بنظارة المالية . وكان من عملها النظر فى جميع احكام التأديب لمصالح الحكومة . وطلب منح الرتب والنيشين لموظفى الحكومة وسواهم ، وتحضير الكسوة للمحمل الشريف ، وارسال الغلال إلى مكة المكرمة . وفوق ذلك كنت عضواً باللجنة الدائمة لتعيين الموظفين ، وعضواً بلجنة تنقيح قوانين المحاكم ، بالنيابة عن وزارة المالية .

بعض الخدمات التى أديتها

وإنى أذكر بعض الأعمال التى نهضت باعبائها فى هذه الوظائف ، وكلها تمت فى عهد المغفور له الخديوى توفيق . وأحمد الله أنى نلت كامل ثقة رؤسائى من الانجليز ، ومن المصريين ، ولا سيما بالمر ، وغورست ، واللورد كرومر ، فضلا عن ثقة جميع النظار المعروفين وعلى رأسهم رياض باشا . . وقد زادت الايرادات فى عهدى نحواً من ٣٢٠و٣٤٤و١ جنيهاً أى بواقع ٥ فى المائة عن إدارة سلفى المسيو مازوك . . . فأوجب ذلك حقد الكثيرين علىّ أمثال « متشل انس » و « اسمعلوم » و « هوكر » وأضرابهم ، ممن كانوا لا يرضيهم أن يتفوق عليهم موظف مصرى ، وكان كل منهم يطمع فى أن يحل محلى فى منصبى . . ولكن نزاهتى وجدارتى للعمل المعهود إلى القيام به . لم يجعلنى أبالى بدسائسهم ، وخرجت من المعمعة ظافراً عليهم ، ولله الحمد !

وانى لاحمد الحق تعالى الذى نصر الحق ، وقوانى على خدمة الفلاح الضعيف ، والتاجر الصغير ، خدمات لا تحصى ، حين حققت لهم الغاء الضرائب التى كانت تثقل كاهلهم ، فضلا عن الغاء عوائد الحدائق التى كانت تلحق بالمنازل ، وتخفيض رسوم دمغ المصوغات ، والغاء كى الماشية . مع العمل على رفع شأن صغار الموظفين . وانصافهم والانعام على المجتهدين منهم بالنياشين إلى جانب انشاء كوبرى عباس تخفيفاً للضغط الواقع على كوبرى قصر النيل

وغير ذلك من الأعمال ، التى لا أرى هناك مايمنعنى من التفاخر بها ، لأنها كلها كانت فى مصلحة بلادى ، وخدمة مليكى ، وأنا مطمئن الضمير إلى ما نلته من رضاء الجميع ، فى هذا السبيل ! !

وقفة عند سلطان باشا . .

ولاستكمال الحديث عن بعض عظماء ذلك العهد ، اذكر اسماء الذين استأثرت بهم رحمة الله انئذ وهم المغفور لهم : « شريف باشا ، وعلى مبارك باشا . وسلطان باشا ، وأحب أن أخص بالحديث منهم سلطان باشا لأنى كنت أعرف الناس به . وأقربهم إليه » :

نشأته الاولى

نشأ سلطان باشا من أصل مصرى يمت للعرب بصلة . وكان من صغره ذكياً ذكاء فطرياً ، مع أنه لم يتعلم بالمدارس . ولكنه كان فصيحاً بسجيته . طلق اللسان : وأتقن اللغة العربية ، على كبر ، حق الاتقان . . . وكان بوجهه السمح ، ومحياه البشوش وقامته المعتدلة ، يجتذب قلوب الناس . أما عن همته ، وحبه للخير ، واريحيته الأصيلة فحدث ولا حرج ! . . . وكان كسائر ابناء العمد ، أول منصب تولاه ، هو منصب العمودية ، وقد كانت الصداقة التى أنعقدت بينه وبين المرحوم الشريعى باشا — الذى كان يشغل ناظر قسم ، أعنى مأمور مركز قلوصنا — من أمتن الصداقات التى عرفت فى ذلك الزمن !

كرمه الحاتمى !

وكان المرحوم الشريعى باشا . من المقربين إلى الجناب الخديوى ، وكان أيامها هو المغفور له سعيد الأول . الذى طلب منه أن يرشده إلى احد أعيان البلاد ، الذين يليقون بشغل وظيفة ناظر قسم ، فارشده هذا إلى « الحاج محمد أبو سلطان » صديقه . وعمدة « زوية الأموات » . فطلبه سعيد باشا ، وسر منه ، بعد أن تحدث إليه ، وسأله : « هل يمكنك أن تضيفنى وجنودى ببلدك » ! اجاب ، « نعم ! يا افندينا . وهذا غاية الشرف » ! فقال سموه : « سأحضر عندك بعد ثلاثة أيام » !

وبالفعل توجه إليه الخديوى بمعيته وجنوده ، فأقام لهم « أبو سلطان » أفخر السرادقات ، ومد فيها الموائد العظيمة على الطراز العربى ، فكانت وليمة من الولائم الكريمة » !

بينه وبين الخديوى سعيد باشا

ولكن الخديوى سعيد قال له : « إنى مع سرورى الكامل بما تجلى لى من كرمكم ورجولتكم ، لا أخفى عليكم أن المنزل الذى تسكنه لا يتعادل مع المنصب الذى سوف تشغله ، ولا يليق بضيافة الملوك والعظماء ، ولاسيما أن فى نيتى أن أعرج لزيارتكم فى عودتى من الرحلة إلى السودان ، وتستغرق خمسة شهور » !

تعيينه فى الحكومة !

ولم يمض غير قليل حتى اجتمع سلطان باشا بالمرحوم الشيخ على الليثى ، الذى أرشده إلى مهندس ليبنى له القصر المنشود . وفرشه بأفخر الآثاث والرياش ، وزينه بحديقة غناء ، جميلة المنظر ، حتى أن الخديوى عند ما قفل راجعاً

من رحلته ، وجده مهيئاً لنزولة ، مما زاد فى أعجابه ، وكان ذلك علامة الرضاء السامى ، إذ أمر بتعيينه ناظراً لقسم قلوصنا مكان الشريعى باشا ، ورقى الأخير إلى وظيفة وكيل مديريه « بنى سويف »

وطنيته العالية !

وليس من اليسير على من يريد أن يتعقب تاريخ المرحوم سلطان باشا أن يحصى خدماته الجمة للبلاد والعباد ، وهو فى مناصب الحكومة ، ولكن جملة القول فيه أن نذكر أنه ما من عمل كان يجد فيه مصلحة لجماهير الشعب ويتوانى عن أدائه ، أو يغفل عن تنفيذه ، بما جبلت عليه نفسه العالية من غيرة وطنية ، وإخلاص صحيح . . .

حيلته الواسعة !

أذكر على سبيل المثال لا الحصر ، أن طوائف اليونانيين كانت فى ذاك الوقت تداين الأهلين بديون جسيمة تكاثرت على الأيام ، بسبب الربا الفاحش ، والفوائد المركبة — إلى حد أنهم كانوا مرتهنين للكثير من أراضيهم وأملاكهم فى القرى والمدن بالأقاليم — فهال ذلك الأمر الخطير سلطان باشا ، وأراد أن يعمل على استخلاص أطيان الأهالى وأراضيهم من براثن هؤلاء المرابين الأجانب ، ويخفف عنهم ما يفدح كواهلهم من أثقالها — فالتجأ لتحقيق هذا الغرض النبيل إلى الحيلة ... فمن نوادره فى هذ المجال ، أن أحد الأروام وكان اسمه الخواجا « باسيلى » الذى كانت تربطه صداقة بالمدير فى ذاك العهد وهو « حسن باشا أبو نيشانين » كان يستغل هذه الرابطة فى التأثير على مأمورى المراكز لمعاونته على تحصيل ديونه من الأهالى ، بحيث كانوا يحملون العاجزين منهم عن السداد على أن يتنازلوا عن أرضهم بالرهن ، أو بالبيع ، للخواجة المذكور فما كان من سلطان باشا إلا أن كتب لعمد البلاد وأعيانها وللمدينين بأن يسددوا ما عليهم من الديون ... وفى الوقت نفسه بعث إليهم بالرسل . ليفهموهم بأن الكتاب الذى أرسله اليهم ، هو « تسديد خانة حسب الأمر ! » ولكن الواجب عليهم أن يمتنعوا عن السداد.. وظلت الحال على هذه الوتيرة . حتى ساءت حال الأجنبى المرابى ، وأشرف على الأفلاس فالتجأ إلى أبى سلطان وشكا له ظروفه ، ولاذبه مما هو حادث .. فأفهمه سلطان باشا بأنه إذا أراد أن يحصل على أمواله ، فعليه أن يتنازل عن الفوائد ، ويكتفى برأس المال ، لا سيما والديون قد أفقرت الأهلين . ورأى الخواجة أن من الصواب أن يغنم من الهزيمة بالأياب ، فردت الأراضى إلى أصحابها ، وقسطت الديون على مدد متفاوتة ، وبذلك أنقذ ثروة البلاد العقارية من أن تؤول إلى غير الوطنيين من أبناء البلاد !!

حاكم الصعيد العام !

ولقد أظهر سلطان باشا فى كل منصب تولاه كفاءة ممتازة ، سواء فى وكالته لمديرية بنى سويف ، أو أيام أن كان مديراً «لروضة البحرين» — الغربية والمنوفية — إلى أن أصبح حاكما عاما للصعيد ، حيث لمع نجمه وتألق إلى درجة الاشراق ، فى عهد الخديوى اسماعيل والخديوى توفيق كما سيأتى القول .

الغاء السخرة وعقوبة الكرباج !

عند ما كنت أعمل معاوناً فى الدائرة السنية ، قلت له : « متى يرحم الفلاح ياباشا من السخرة القاسية ، واداء الاعمال بغير اجر .. ومن عقوبة الكرباج » ؟ فسألنى : « وهل انت تتمنى ذلك » ؟ قلت : « بغير شك ، فهذه من

مظاهر عهود الاقطاع الوحشية » ؟! وفعلا أنتهز فرصة تشكيل النظارة المختلطة ، واستدعانى لمصاحبته لزيارة المرحوم نوبار باشا ، وطلب اليه تحقيق هذه الفكرة واداء الأعمال بالأجور ، وتم ذلك الأمر .

ثم طلب منه ايضاً الغاء العوائد الشخصية ، وعقوبة الكرباج بموافقة السير ريفورس ولسن ، ناظر المالية فى ذلك العهد — وكنت انا فى أثناء هاتين الزيارتين ، ترجماناً لحال سلطان باشا ، فنجحنا ولله الحمد فى هذه الأمور التى تعتبر كسباً لمجموعة الأمة المصرية !!

بينه وبين القناصل !

اذكر من مواقفه التى تنطق بالشمم والاباء ، أننى كنت استصحبه فى طوافه بالاقاليم ، للأشراف على سير الأعمال ، وكنت اذ ذاك معاوناً بتفتيش الاقاليم . ان وصلنا الى أسيوط فى باخرة نيلية ، فلما قابله مديرها — وكان المرحوم حسين باشا واصف — « الشركسى الأصل » أن جاء حديث عن سير سداد ضرائب الحكومة واموالها ، فقال المدير : « إن جميع أهالى المديرية قد سددوا المطلوب عليهم ، ماعدا جماعة القناصل ؟؟ »

فدهش سلطان باشا لهذه الكلمة ، وكبر عليه الأمر ، واستغربه وسأله : « قناصل ؟ وهل يوجد عندك هنا قناصل » ؟

أجاب المدير : « نعم ! .. إنهم جماعة « ويصا » وجماعة « خياط » ! فغضب سلطان باشا وقال للمدير : « ومن عمل هؤلاء قناصل ؟ الى حد انهم يمتنعون عن سداد مطلوبات الحكومة .. ؟ هل يظنون انفسهم دولة داخل الدولة ؟؟ » ثم فكر قليلا واستطرد فى القول :

— : « أسمع ياسعادة المدير .. إذا كان هؤلاء يعتبرون أنفسهم غرباء عن البلد ، وتحت الحماية الأجنبية ، فأكتب أمراً يحظر على الأهالى العمل فى زراعاتهم ، أو التعامل معهم ، بل يجب عليهم أن يقاطعوهم ، فان ذلك خير عقاب لهم » !

ولم يمض غير قليل من الزمن ، حتى شعر « القناصل » بوخامة العواقب التى سوف تترتب على هذا الأمر ، فأسرع الخواجه « ويصا » بالحضور . وأخذ يستفسر عن الشخص المقرب الى سلطان باشا ، ليوسطه فى المسألة ففى ذات يوم قابلنى وقدم إلى نفسه قائلا بالحرف الواحد : « ياخوى متنا خلاص ، ووجف حالنا » ! فقلت له : « ياخواجه ! ماذا أفعل وأنت تعصى أوامر الحكومة .. اذهب الآن وسدد ما عليك للمديرية وجميع زملائك يفعلون عملك ، وحينئذ يكون لوساطتى معنى » !

وفعلا نفذ الخواجه ما أشرت به عليه ، وحضر فى ذات اليوم ومعه « الأوراد » الدالة على ذلك . فدخلت على سلطان باشا وعرضت عليه الأمر بحذافيره . فما كان منه إلا أن هتف فى قائلا : « اطردهم جميعاً .. فأنى لا أريد أن اراهم » ! فقلت له : « يا باشا أنى صغير السن والمركز ، ولكنهم توسموا خيراً فى حسن ظنك بى ، وصلتى بك وأعتقد أنه لا يرضيك اخجالى . أو التصغير من شأنى أمامهم فضلا عن امتثالهم لأمركم » !

فارتاح سلطان باشا لهذا الحديث وقال : « نادهم ... من اجل خاطرك سوف اقابلهم » ، ومن طريف ماحدث انى سمعتهم وهم فى طريقهم لمقابلته يقولون محدثين انفسهم : « إذا صافحنا ، وترك لنا يده نقبلها فمعنى ذلك الرضى والتسامح . : أما إذا قبضها وسحبها منا . فيكون لا يزال غاضباً » ! !

وقد صح ظنهم إذ صافحهم الباشا فرداً فردا ، فأهووا على يده بالتقبيل !

أخريات أيامه

ولما اشتدت وطأة المرض بالمرحوم سلطان باشا ، فى أخريات أيامه ، أشار عليه الأطباء بالسفر إلى أوربا للاستشفاء ، وكان إذ ذاك رئيساً لمجلس شورى القوانين ، فسافر اليها يصحبه عالم كبير هو الشيخ « قراعة » وخادم ومترجم ، ولما زادت حالته خطورة بعث إلى يستدعينى ، وكنت إذ ذاك فى « جنيف » — ولكنه شاء أن يوافينى هو اليها ، مع أنى كنت قد أعددت العدة لأن أشخص إليه ، فلما رأيته على ما كان عليه من الضعف والاعتلال ، حزنت حزناً شديدا ، لأنى أدركت أن منيته قد قربت ...

وكان أول ما عملته هو ان استدعيت لعيادته مشاهير الأطباء ، وقد تبين أنه مريض « بالسرطان » وأن أيام حياته معدودة — لاسيما وأن حديث الأطباء بذلك كان بالفرنسية التى يجهلها — وكان وجهى ممتقعاً من هذه الحاله الخطيرة ... فلما سألنى عما قاله الأطباء عنه ، قلت له وأنا اصطنع رباطة الجأش ، بأنهم أفتوا بأن هواء أوربا لا يلائمكم ، وأن طقس مصر الدافىء أصلح لحالتكم : ولذلك فقد نصحوا رغبة فى التعجيل فى شفائكم بعودتكم إلى أرض الوطن !!

وهنا ضحك رحمه الله ضحكة الساخر وقال : « وهل نخدع أنفسنا ، حتى فى الموت » ؟ ثم سألنى إن كنت أصحبه فى العودة إلى مصر ، فقلت له على الفور : « إن هذا سؤال لا يحتاج إلى جواب » ! ثم قمنا فى اليوم التالى بالرحيل من مدينة إلى أخرى ، حسب ما كانت تقتضى حالته الصحية ، إلى أن انتهى بنا المطاف إلى بلدة « جراتز » المتاخمة « لتريستا » حيث نزلنا فى فندق « الفيلت أوتيل » — وفى هذه الليلة لاحظت على سلطان باشا أنه منشرح الصدر ؛ فسررت وقلت فى نفسى ، لعل الله يخلف ظنون الأطباء .. ولكنها مع الأسف ؛ كانت يقظة الموت ! .. إذ فى فجر تلك الليلة لفظ هذا الرجل العظيم آخر ألفاظه وقضى نحبه : مبكياً عليه ، مذكوراً بتاريخه العظيم !

ولا يمكنى أن أعبر عما اعترانى من الحزن والكمد ، إلى حد فقدت معه الوعى قليلا ولكن صحوت لنفسى وتذكرت واجبى نحو فقيد الوطن ، والصديق العظيم ، فدعوت الأطباء لتحنيط الجثة ، توطئة لنقلها إلى مصر ، ثم أبرقت بوفاته إلى سمو الخديوى توفيق ، الذى أهتم للأمر ، أذ تلقيت من المرحوم نوبار باشا رئيس النظار بأنه قد أمر بلوم باشا بأعتماد ما يلزم للقيام بالواجب نحو وطنى بار ، وكان بلوم آنذاك فى فينا يمضى أجازته .. فحضر إلى ، وعملنا مايلزم حتى وصلنا إلى مصر ، فشيعت البلاد فقيدها الكريم ، بمشهد رسمى ، اشترك فيه عظماء البلاد ، بما يليق بمقامه العالى ، وأعماله الجليلة ، فى مواساة أسرته !

ومما لا يزال موضع دهشتى أن فردا من اسرته لم يتقدم إلى ليستفسر منى عن تفاصيل وفاته ، كأن الأمر لم يكن يعنيهم ، ولكن لا بأس فقد أديت أنا واجبى ، نحو هذا الرجل الذى كان بين عشيرته كالزهرة اليانعة التى يعطر أريجها الناس ، وكالشجرة الباسقة التى تظلل العالمين ! !

هذه بعض ذكرياتى عن أعلام هذا العهد ، أردت بسردها أن أكشف عن بعض نواحى العظمة النفسية ، وقوة الخلق ، والاستقامة التى كانوا يمتازون بها ، لأمهد بذلك إلى الاستطراد فى ايراد أحدى الحوادث التاريخية البارزة فى عهد الخديوى توفيق .

كيف أطلقت لحيتى ولماذا ؟

كان ذلك يوم أن كنت اشغل وظيفة وكيل ديوان جفالك بالدائرة السنية . وكان فى هـذه الوظيفة سابقاً رشوان باشا — وهو رجل كبير السن — مهيب الطلعة سامق العود . عريض المنكبين وكانت شواربه الكبيرة ، بوجهه التركى المشرب بالحمرة . تلقى فى قلوب الموظفين وأفراد الجمهور الخوف من بأسه ، والذعر من بطشه . فلما عينت أنا مكانه فى هذه الوظيفة ، كنت حدث السن . فى فجر الحياة . وريق الصبا الباكر . وكنت قبلها أشغل وظيفة « باش معاون » ديوان جفالك سنية قبلى

صاحب المذاكرات باللحية

فلما توليت هـذه الوظيفة لاحظت — لصغر سنى — أن الموظفين الذين تحت إدارتى ينظرون إلى نظرة استخفاف ذلك لأن الفارق كان كبيراً بين شاب فى مستهل الحياة مثلى . ورجل تركى له شوارب طويلة . وقامة فارعة . كأنما الكفاءات كانت تقاس فى ذلك العهد الغابر بالطول والعرض وبالسكم لا بالكيف . . . وهنا أضطررت تحت ضغط هذه الظروف إلى أن أطلق لحيتى . على مثال ماكان النبلاء الفرنسيون يفعلون فى حاتم . لعل ذلك يوحى إلى الموظفين وغيرهم بالهيبة التى تقتضيها الوظيفة الكبيرة التى أشغلها ولكن ذلك لم يكن ليجدى نفعاً أو يكون له الأثر المطلوب . إذ شعرت أن الموظفين ما برحوا ساخرين فيما هم فيه من الاحساس بالفرق بين حداثتى وصغر سنى وبين ماكان عليه سلفى من التقدم فى العمر !!

وفى ذات يوم حدث أن خالف أحد هؤلاء الموظفين تعليمات كنت قد اصدرتها بشأن أمر من الأمور فماكان منى الا أن امرت باستدعائه أمامى وبعد أن اشبعته تأنيباً وتنديداً لاحظت أن التوبيخ لم يكن له التأثير المطلوب فأمرت بوقفه وفصله من وظيفته فسارت بعد هـذا الحادث الأمور على خير مايرام وشاعت فى قلوب الموظفين الرهبة التى كنت ابتغيها فلما تحقق ذلك حلقت لحيتى وعدت كما كنت فيما سلف من الزمن لأن الباعث الذى حدا بى إلى اطلاق اللحية قد انعدم وزال فأزلت بزوال هذه الدوافع لحيتى ! !

بينى وبين الخديوى توفيق

وبعد ذلك بفترة من الوقت استدعانى سمو الخديوى توفيق فلما تشرفت بالمثول بين يديه أبتدرنى بقوله :

— ما هذه المفارقات ياقليبى بك، هل نحن فى فرنسا : تطلق لحيتك على هذه الصورة : ثم تعود فتحلقها . ؟؟! حدثنى عن حقيقة الأمر ، فانى أود معرفته . فأجبت سموه . .

— الحقيقة يامولاى ، أنى كنت أشكو التهاباً جلدياً : تسبب عنه ظهور « الحرارة » فى ذقنى — فما كان منى إلا أن اطلقت لحيتى لأخفيها — أى أخفى « الحرارة » عن العيون . . !

فضحك سموه قائلا . .

— ولكى لا أرى لهذه « الحرارة » أثرا فى وجهك . . . . وأنا أعتقد أن هـذا ليس بيت القصيد . . فقل الحقيقة ورزقك على الله . . !

فابتسمت لسموه ، وسردت عليه القصة بما تنطوى عليه من الوقائع وبما فيها من رفت الموظف وما كان له من أثر فى دائرة الاعمال . .

فاستغرق سموه فى الضحك ، وشاع على وجهه الكريم سرور فياض ، وأخذ يتحدث الى قائلا :

— والله ياقليني بك أن السبب الذى دفعنى إلى اطلاق لحيتى انا ايضاً ، يشبه السبب الذى من اجله اطلقت انت لحيتك كذلك . فقد كنت حين تقلدت عرش الخديوية المصرية حديث السن ، فى فجر الصبا ، وكان والدى الخديوى اسماعيل رجلا عظيم الهيئة ، موفور القوة ، مهيب الطلعة بلحيته الكثة . وشخصيته المرهوبة . فاضطررت من اليوم الذى تقلدت فيه مقاليد الأمور ، ان اطلق لحيتى حتى ترانى الجماهير بنفس العين التى الفت بها رؤية الخديوى اسماعيل . والفارق بينى وبينك انك مطلق الحرية فى اطلاقها أو إزالتها كما تشاء ووقت ما تشاء ، اما انا فلا استطيع ، فهناك تقاليد لا استطيع منها فكاكا ، ولهذا فانى مضطر على الابقاء على لحيتى العزيزة ! !

هذه بعض نوادر ذاك الزمان ! !

الخلاصـــــة

وجملة القول ان الخديوى توفيق له مآثر عظيمة لا يجب إغفالها ، وفى مقدمتها مآثره على حلوان التى يقال بحق انها من صنع يديه ، لانه وان كان الذى وضع أساسها هو المرحوم الخديوى اسماعيل ، حيث أقام بها الحمامات المعدنية التى لها من المزايا ما لا ينكر — والدهر لم يمهله لاتمامها . فان الخديوى توفيق عمل تخليداً لذكرى أبيه ، وحبا فى العمران ، وخدمة للأنسانية بجد واجتهاد على توسيع حلوان . التى كانت فى عهد أبيه لا يوجد بها إلا الحمامات وفندق واحد ، وربما عدد من المنازل يناهز الخمسين فجعلها مدينة عامرة ، أصبح بها الآن ما يزيد على ستة آلاف منزل — وخط فيها الشوارع العظيمة ، وغرس بها المنتزهات وأوجد بها المياه والنور — فالفضل كل الفضل راجع اليه فى إنشاء هذه المدينة العظيمة وعمرانها ، لانها قائمة بخدمة الانسانية خدمة لا تقدر ، حيث يقصدها كثير من سكان ممالك أوربا فى فصل الشتاء للأستحمام بمياهها المعدنية الشافية رحمه الله ، رحمة واسعة . . !